ثقافة الصحراء

رغم التمايز بين بدو الجزيرة وحضرها في أنماط الإنتاج ظلت توحدهم ثقافة الصحراء بكل قيمها ومثلها وتصوراتها وكل رموزها المتغلغلة في مجتمع الحضر ومجتمع البدو على حد سواء. البداوة والحضارة في الجزيرة العربية ثقافتان فرعيتان لثقافة أعم وأشمل، ثقافة الصحراء التي تُشكل سكانها وتلون تفكيرهم وسلوكهم مثلما تشكل الغابة سكانها أو مثلما تشكل المناطق الجليدية سكانها. ثقافة الصحراء تسكن الموروث اللغوي والشعري لأبناء الجزيرة العربية. النسيج الخيالي في الشعر العربي بصوره ومجازاته واستعاراته مستمد من البيئة الصحراوية ومؤطر بروح البداوة ونظرتها التي تشكل مادة لا تنضب للاستلهام الشعري وتهيمن على رؤية العربي وتتغلغل في تكوينه النفسي والوجداني. ومهما حاولت الحضارة بمنظوماتها الفكرية والأيديولوجية أن تضرب سياجا بين العربي وبين البداوة فإن لغته وشعره لن يسمحا له بالانسلاخ منها تماما.

الكرم والشجاعة

القيم والمثل التي ينضح بها الشعر العربي، فصيحه ونبطيه، أكثر تواءما مع بيئة الصحراء وأشد توافقا مع طبيعة الحياة الرعوية ونشاطاتها وألصق بمعيشة البادية وسلوكياتها. كلما صعد الحضر درجات أعلى على سلم التطور الحضاري وكلما تطورت وسائلهم التقنية واقتربوا من المفهوم الخلدوني للحضر كلما اتضح التمايز وزادت الهوة بينهم وبين البدو وابتعدوا عن روح البداوة وقيم الصحراء. نتيجة الاختصاص في العمليات الإنتاجية يصبح إنتاج الغذاء في المجتمعات الحضرية وقفا على عدد قليل من أفراد المجتمع بينما يتفرغ الباقون لمهام أخرى يجنون من ورائها الدخل الذي يحصلون به على ما يحتاجون إليه من الغذاء. يؤدي تقسيم العمل إلى فصل الوظيفة الإنتاجية لتصبح مستقلة عن الوظائف الاجتماعية الأخرى ويصبح هدفها الأساسي ومقياس نجاحها أو فشلها هو إنتاج الفائض وتحقيق الأرباح. إنتاج الفائض وإمكانية تخزينه وتحقيق الأرباح من ورائه يجعل تكديس الثروة أمرا ممكنا، وهذا بدوره يقود إلى تعزيز مفهوم الملكية الفردية. ومما يعزز مفهوم الملكية الفردية عند الحضر والفلاحين أن الأرض الزراعية ملك ثابت وحق خاص لا يجوز لأحد استخدامها إلا مالكها الذي له حق توريثها لأبنائه. لذلك نجد الحضري أكثر تمسكا من البدوي بمفهوم الملكية الخاصة ويميل في سلوكه الاقتصادي نحو الترشيد والتدبير.

وبينما يحن الحضري إلى شيوع السلام والاستقرار واستتباب الأمن والنظام ليفلح أرضه ويجني محاصيله وينمي تجارته، يشكل الترحال نمطا أساسيا من

أنماط حياة البدوي وتشكل المغامرة وركوب الخطر مركبا هاما من مركبات شخصيته. لذلك يزدري البدوي حياة الحضري الذي، في نظره لا يضرب بالسيف ولا يقرى الضيف، ويفخر عليه بأنه حر أبي يذهب حيثما يشاء في الصحراء وشجاع يعيش في ظلال رمحه ويحصل على رزقه بسيفه، بينما الحضري مربوط إلى بيته الطيني يكد ويكدح طوال النهار مثل المستعبد المستكين. يقارن جلوب باشا بين البدو والحضر قائلا:

> تتألف ثروة البدوي في هذه الدنيا من قطعان متحركة من الأنعام، أما ممتلكات الحضري فإنها ممتلكات ثابتة تتمثل في أرض وبيت ومزرعة. إذا شعر البدوي بالتهديد من عدو أقوى منه فإنه يمكنه اتقاء الهجمة بالتحرك سريعا مع قطعانه التي يسوقها أمامه. وما دامت هناك أمام البدوي صحراء مفتوحة فإنه يستطيع الهرب من طالبه إلى المراعي البعيدة التي يعجز الخصم عن الوصول إليها. أما الفلاح فيلزمه الثبات والدفاع عن أرضه. لو هرب الحضري لاضطر إلى ترك أرضه وبيته لعدوه وأصبح لاجئا لا يملك شروى نقير. ولذلك فإن الحرب لا تعني للبدوي ما تعنيه للحضري من صراع مستميت تعتمد عليه حياته وبقاؤه. بل إن الحروب بالنسبة للبدو تبدو أحيانا وكأنها لا تعدو أن تكون رياضة يمارسونها لإضفاء نوع من المتعة والإثارة اللازمة لكسر رتابة الحياة الرعوية (Glubb 1960, 30-31).

المحددات البيئية لقيم الصحراء تتجلى أكثر ما تتجلى في حياة البدو الرحل حيث تظهر آثارها الدراماتيكية على الإنسان والحيوان والنبات بصورة مباشرة وسريعة. حياة البدوي ونشاطاته محكومة بشكل ملحوظ بتقلب المواسم والفصول والمناخ والمؤثرات الطبيعية الأخرى. يعيش البدو وأنعامهم تحت رحمة الطبيعة وهم عرضة للتأثر بعوامل البيئة والمناخ. ثروة البدوي المتحركة التي تتمثل في أذواد الإبل تضطره إلى الانتجاع في البراري بحثا عن المراعي الطبيعية التي تعتمد على مطر السماء وتجعله يتطلع دوما إلى الترحال. الحفاظ على هذه الثروة المتحركة وحمايتها من الغزاة فرضت على البدوي أن يعيش ليله ونهاره في حالة استنفار دائم والغزو جعل منه رجلا مغامرا يكسب عيشه بقوة السلاح. من لا يتمتع بالشجاعة اللازمة لا يستطيع العيش في الصحراء المفتوحة. وهذا مما كرس عند البدوي قيم الشجاعة والفروسية والجرأة. ويفسر ابن خلدون كيف يفطر البدوي على الشجاعة والبأس في قوله:

> السبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارّون آمنون، قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة. وأهل البدو لتفردهم في المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون

> السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنِّبات والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء مدلّين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى ما دعاهم داع أو استنفرهم صارخ وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل (خلدون ١٩٨٨/ ١: ١٥٥-٦).

يحترم البدو الرجل الشجاع ليس لشجاعته فقط وإنما لأن الشجاعة تمكنه من الكسب الذي ينفقه في طرق البذل والعطاء. يقول جلوب باشا الذي عايش البدو وعرف طباعهم "الشخصية المتهورة للفارس الشجاع تصاحبها عادة سمة البذل اللامحدود" (Glubb 1960: 31) . ويقول ألاويس موزيل "يحن البدوي للغزو ليل نهار. لا لأجل الغنيمة وإنما لما في عملية الكسب ذاتها من الإثارة، وكلما كان الخطر أعظم كلما كانت المغامرة أكثر جاذبية. وحالما تقع الغنيمة في يديه ويضمن الحصول عليها فإنها تفقد جاذبيتها بالنسبة له ويهبها للآخرين ليبدأ التخطيط لمغامرة أخرى. وغالبا ما تراءى لي أن البدو ينظرون إلى الغزو كضرب من الرياضة" (Musil 1927: 424) الشجاعة ضرورية لتحقيق القيمة الأسمى في المجتمع الصحراوي، قيمة الكرم. ويتساءل لانكاستر: ما الفائدة من اقتناء عدد كبير من الأذواد التي كلما زاد عددها كلما زادت احتمالية نهبها من قبل الآخرين وكلما شكلت عبئا على صاحبها حيث تحتاج إلى عدد أكبر من الرعاة والحراس. فالاستثمار الأمثل هو توزيع ما يزيد عن الحاجة لمضاعفة رصيد المرء من السمعة والصيت والذكر الحسن، فالرجل لا يُقَيَّم بحجم ما يمتلكه من أذواد وإنما بما يمر عبر يديه السخيتين من أباعر يمنحها للآخرين. ويقدر لانكاستر الحد الأدنى من الإبل اللازمة لإعالة عائلة متوسطة الحال تتألف من ستة أشخاص بحوالي عشرين ناقة مع بعض الجمال التي تستخدم لأغراض الحمل (Lancaster 1981: 139-41) .

حياة البداوة تحد من إمكانية التكديس والتخزين والتوفير وبالتالي من مفهوم الملكية الفردية. الملكية الفردية عند البدوي لا تكاد تتعدى بيت الشعر الذي يسكنه والزمل أو المظاهير التي يحمل عليها بيته وأفراد عائلته إذا شاء التحول من منزل إلى منزل، والعدد الكافي من النوق التي يتغذى هو وعائلته على ما تدرّه من حليب، إضافة إلى راحلته وفرسه وسلاحه والثوب الذي يلبسه، وما شابه هذه الأشياء من مستلزماته الشخصية. الأرض في المجتمعات البدوية، بكل ما فيها من موارد طبيعية، ملك مشاع يمكن لأي فرد ينتمي إلى الجماعة إما بحكم القرابة أو الجوار أن يستفيد منها ويستخدمها لمنفعته الخاصة. علاقة القربى التي تربط الفرد بالجماعة هي التي تعطيه الحق في استغلال الأرض والاستفادة منها. ابن القبيلة له حق الرعي والاحتطاب والقنص في أرض قبيلته واستغلال مواردها أو حتى زراعة قطعة منها

ولكن ليس له حق البيع أو التأجير، ليس له حق التصرف المطلق في الأرض ومواردها الطبيعية سوى الحصول على متطلبات الحياة الأساسية والجميع في ذلك متساوون. أي أن حق الاستخدام فردي أما حق الملكية فهو مشاع. علاقة البدوي بالأرض تختلف عن علاقة الفلاح الذي تتطلب حياته الاستقرار ويلزمه تملك الأرض وما يتبع ذلك من استثمار في المباني الثابتة ومعدات السانية وشق قنوات الري واستصلاح الأرض لزراعتها وما يخرج منها من غلة ونخيل وأشجار يستحيل عليه أن ينقلها معه أينما ذهب. فالأرض بالنسبة للفلاح هي الملك أما بالنسبة للبدوي فهي مجرد أماكن للرعي والاحتطاب والسقيا. حلال البدوي ليس الأرض وإنما القطعان المتحركه التي يستطيع تحريكها معه أينما ذهب، لذا فإن ما يهمه ليس الأرض ذاتها وإنما ما على وجه الأرض من ماء ومرعى له ولحلاله. وقطعان الإبل حينما تذهب إلى المرعى تحتاج إلى من يحميها ضد الغزاة، أو ما يسمونهم الجنب من فتيان القبيلة. ومقابل هذه الحماية فإنهم، وإن كان كل ذود مملوك اسميا لصاحبه، لهم الحق في الانتفاع بما تدره النوق من حليب. ولو احتاج أي منهم إلى دفع دية جراء حادث قتل أو أن يتزوج ويسوق مهرا لعروسه فإن كل مالك ذود ملزم بأن يدفع له حسب قدرته وإمكاناته. وهكذا فإن لابن العم القريب حق في أذواد الإبل التي تمتلكها خمسته بحكم استبساله في الدفاع عنها والمشاركة في رعيها، فهي بشكل أو بآخر تعتبر ملكا مشتركا للعائلة الممتدة (Cole 1975: 69). الشيء الثابت الوحيد في حياة البدوي هي الآبار، لكن العدة التي يجذب بها الماء من الآبار هي من البساطة والبدائية بحيث يمكنه تفكيكها ونقلها معه أينما ذهب. وقد يدّعي البعض ملك بعض الآبار لكنها ليست ملكية مطلقة فهي تعني فقط حق الأولية على غيره، لكنه لا يمنع الآخرين من أبناء عمه من استخدام ما يزيد عن حاجته من الماء وبدون مقابل. حتى ملكية ذود الإبل الذي في حوزة البدوي أمر مشكوك فيه؛ فلربما أنه لم يرثه ولم يدفع فيه ثمنا وإنما انتهبه واستولى عليه بالقوة كما يفتخر بذلك سعدون العواجي في قوله:

ما هن بورث جْدودنا المقدمينا شبثٍ بالايدي من حلايب عْدانا

ومن المحتمل في أي لحظة أن ينهب منه أو أن يهلك عن آخره في سنوات القحط. حياة البدوي صراع مستمر مع قوى الطبيعة والأعداء، وثروته الحيوانية سريعة العطب جراء الجوع والعطش، كما أنها عرضة للنهب من الغزاة. ومن الأمور العادية في حياة البدوي أن يصبح غنيا يملك قطيعا من الإبل فينهبه الغزاة ويمسي لا يملك شيئا أو أن يفقد قطيعه في سنة مجدبة أو يهلك ظمأ. وبالمقابل يمكنه لو اشترك في غزوة مظفرة أن يسلب ما يملكه الآخرون من أذواد ويصبح رجلا غنيا. ما تملكه هو لك فقط ما دمت تملك القوة للدفاع عنه، فقانون الصحراء هو: الحق للقوة. يقول شليويح العطاوي يصف ما كسبوه بعد غزوة مظفرة:

أنا دليلتهم وسبر للآلاد — قلت ابشروا ياشاربين الوزانِ
طالعت عِفرٍ في مساريح الابعاد — طالعتها ما ني عليكم بْكاني
غاروا هل العيرات والخيل تنقاد — انكافة القنّاص والشوف داني
طارت عمايمنا وطارن الاجعاد — وتبيّنن عقب الغبا بالبيان
والصبح عزّل فودنا كل فوّاد — مِثْبَجّحٍ بمشرهفات الاذان

ويقول عويض ابن سالم المقوعي من قصيدة له:

ان صاح صيّاح براس الفلاة — لحقوا وكلٍ في يده صنع بيطار
ان حولوا بنحور قوم عصاة — خلّوا جثاياهم على روس الأشجار
ياعد ما ضرّبتهن "مقعيات" — واكثر مداليهن من "الهضب" ويسار
ضويت وانا ميّسٍ من حياتي — واصبحت الادي بالمشاعيف واختار

طبيعة الحياة الرعوية المتنقّلة لأبناء البادية التي تحتمها بيئتهم الصحراوية تحول دون تكديس الفائض وتجميع الثروة وتحقيق الأرباح. مما ينمي لديهم نزعة المشاركة التي تتمثل في النخوة والشهامة والنجدة والإغاثة " الفزعه". هنا يصبح الهدف من الإنتاج هو مجرد الاكتفاء الذاتي والاشباع المباشر لحاجات أفراد الوحدة الإنتاجية، أي العائلة، وهذا ما يسمى الإنتاج الطبيعي أو العائلي. ولو أنتجت العائلة ما يفيض عن حاجتها فإنها لن تبيعه لتربح من وراءه لأن ذلك يتنافى مع التقاليد والقيم الاجتماعية السائدة التي تحد من تكديس الفائض، ولكنها ستصرفه في عمليات غير إنتاجية كأن تمنحه على شكل هبات وهدايا لتعزز من وضعها الإجتماعي. الاستثمار في هذه المجتمعات لا تحكمه اعتبارات مادية وإنما اعتبارات اجتماعية وقيم ثقافية تعمل على توسيع دائرة العلاقات الاجتماعية وتدعيمها. أي أنه لا توجد أهداف اقتصادية من وراء الإنتاج وإنما أهداف اجتماعية يتم تحقيقها عن طريق ممارسة نشاطات في المجال الاقتصادي مثل تعزيز الدور والهيبة والمكانة الاجتماعية. التعامل المادي في هذه المجتمعات ليس إلا حدث عابر ضمن علاقة اجتماعية مستمرة تحكم هذا التعامل المادي وتوجهه وتؤثر عليه مثلما تتأثر به. ومن الآليات المتبعة لتوظيف الثروات المتراكمة نحو أهداف اجتماعية، بدلا من الأهداف الاستثمارية والإنتاجية، إنفاقها بكرم على شكل هبات وإقامة الولائم والتفاخر والتباهي في البذل، كما كان يفعل عرب الجاهلية فيما يسمى المنافرة والمعاقرة كأن يتباروا أيهم يعقر عددا أكبر من الإبل للضيوف، مثلهم في ذلك مثل ممارسة البوتلاتش potlatch بين هنود أمريكا الشمالية. ولا يوجد هناك من دافع لتكديس الثروة في المجتمعات التقليدية لأن التمايز في هذه المجتمعات لم يبدأ تأسيسه بعدُ على المال وإنما يقوم على اعتبارات أخرى مثل الكرم والشجاعة والحكمة والنزاهة.

في ظل هذه المعطيات تصبح مشاركة الفرد الآخرين فيما يملك سمة ثقافية متأصلة وقيمة اجتماعية تلازم حياة البداوة. الكرم هو الإسستثمار الوحيد الذي

يمكن التعويل عليه في مجتمع لا يعرف التكديس والتخزين. الضمان الوحيد أمام الفرد في مثل هذه المجتمعات هو توسيع شبكة علاقاته ما أمكن مع أكبر عدد من الناس وبالارتباط معهم عن طريق تبادل الهدايا ومد يد العون وتقديم الخدمات المجانية "**الفزعات**". إلا أن المشاركة هنا تبادلية، بمعنى أن الإنسان يتوقع من الجميع أن يبادلوه كرما بكرم وأريحية بأريحية. إنها تكديس الجمائل عند الآخرين ومحاسبتهم عليها عند الحاجة؛ فالإنسان يعطي طواعية حينما يكون قادرا ليكون له الحق في الأخذ حينما يكون محتاجا. هذا ما يسمونه بالمفهوم الأنثروبولوجي اقتصاد المهاداة، ويشير إلى طبيعة العلاقات الاقتصادية ما قبل الرأسمالية التي تسود في المجتمعات التقليدية والبدائية والتي، نظرا لغياب النقد أو ندرته، عادة لا تعتمد على البيع والشراء والتبادل التجاري في الحصول على متطلباتها من السلع والخدمات وإنما تأخذ شكل المهاداة gift exchange والمقايضة barter وإعادة التوزيع redistribution. والمهادة وإن كانت تعد في صميمها عملية اقتصادية إلا أنها تختلف عن نمط التوزيع القائم على نظام السوق والنقود في أنها تتم بين أناس تربطهم علاقات شخصية وقرابية محملة بالمشاعر وتشكل جزءا من هذه العلاقات تؤثر فيها وتتأثر بها. تختلف عمليات التوزيع في المجتمعات التقليدية المتمثلة في تبادل الهدايا عن عمليات التوزيع التي تتم في المجتمعات الرأسمالية المتمثلة في تبادل السلع. تبادل السلع يتم عن طريق البيع والشراء بين أناس أغراب لا تربطهم أي علاقة شخصية أو قرابية كل منهم يسعى إلى تحقيق أكبر قدر يستطيعه من المكاسب على حساب الآخر، لأن العملية بالنسبة لهم تجارية مادية بحتة تحكمها ظروف السوق وآليات العرض والطلب. وتجري العملية التبادلية بين البائع والمشتري كأفراد خارج السياق الاجتماعي وبصرف النظر عن المكانة الاجتماعية والمقام لأي منهما ولا تشكل السلع بالنسبة لهما سوى مواد قابلة لنقل الملكية بكل بساطة عن طريق البيع والشراء دون أن تتخذ العملية التبادلية أي بعد اجتماعي أو مسحة شخصية وتنتهي العلاقة بينهما بمجرد انتهاء الصفقة. أما تبادل الهدايا فإنه يشكل جزءا أساسيا من التفاعل الاجتماعي والاعتماد المتبادل بين أفراد العشيرة أو الجماعة المحلية والوفاء بالالتزامات الدينية والأخلاقية والاقتصادية. المهم في هذه العملية ليس الهدية في حد ذاتها كشيء مادي، وإنما العلاقة التي تنشأ أو تستمر وتتوثق عن طريق المهاداة، أي أن العلاقة بين الأفراد أنفسهم في هذه الحالة أهم من العلاقة بينهم وبين الأشياء التي يتبادلونها والتي هم يتبادلونها لا لذاتها وإنما من أجل العلاقة الناتجة عن مثل هذا التبادل.

وتكتسب الهدية قيمتها من كونها مؤشرا يحدد المكانة الاجتماعية للمتهادين وطبيعة العلاقة بين المانح والممنوح، ما إذا كانت علاقة ندية أم علاقة تابع ومتبوع،

الخ. ولذا يتخذ التهادي أشكالا مختلفة تحددها مكانة الطرفين وعلاقة أحدهما بالآخر. فالأدنى مثلا لا يجد غضاضة في أن يستجدي من هو أعلى منه قدرا ومكانة دون أن يحط ذلك من قدر السائل ودونما يكون هناك نية لرد الهدية بمثلها، وإنما قد يتخذ الرد شكل قصيدة مدح أو إشادة أو اعتراف بالجميل مما يساهم في زيادة رفع مكانة المانح وتلميع صورته. وما أكثر ما سمعنا أو قرأنا عن سيد من سادة القبائل أو أجوادهم اضطر للاستدانة حتى لا يرد سائله خوفا من الشماتة وحفاظا على سمعته وحتى لا يقال عنه أنه رد سائله. كما أن المنوح قد يرفض الهدية لو رأى أنها أدنى من مكانته أو أن قبولها يحط من مقامه ومنزلته بالنسبة للمانح. وأحيانا يكون المهم هو رد الهدية حتى ولو بأقل من قيمتها لأن القصد هو الاعتراف بالجميل وإقرار المنوح بأنه مدين للمانح. وقد يغالي البعض في البذخ ويسرف في الكرم ونحر الجزر وإقامة الولائم حتى تطبق شهرته الآفاق ويتحدث بكرمه الركبان. ولأن الاقتصاد الذي يقوم على البذل والمهاداة هدفه تفعيل الدور الاجتماعي وتأكيد المكانة الاجتماعية وتحقيق السمعة الطيبة والذكر الحسن يسميه الأنثروبولوجيون اقتصاد السمعة والمكانة ليميزوه عن اقتصاد السوق الذي يهدف إلى الكسب المادي.

ومفهوم التبادلية والمهاداة متغلغل في الذهنية الصحراوية لدرجة أنهم قد يكونون الوحيدين من بين شعوب العالم الذين ينطبق عليهم مفهوم التبادلية السلبية negative reciprocity كما يعرفها الأنثروبولوجي الأمريكي مارشال سالينز Marshall sahlins والتي تشكل واحدة من ثلاثة أنماط من التبادلية، الإثنتان المتبقيتان هما التبادلية الشمولية generalized reciprocity والتبادلية التعادلية balanced reciprocity (Sahlins 1972: 193-196). وتعتمد هذه الأنماط الثلاثة على درجات القرابة أو الغربة بين المتهادين. فالمهادة الشمولية تسود بين أفراد الجماعات المحلية الصغيرة التي تربطهم أواصر قوية من القربى أو الجوار التي تسود فيها قيم الإيثار بحيث أن كلا يعطي حسب قدرته ويأخذ حسب حاجته. المنحة في هذه الحالة ليست دين يتوقع المانح أن يسترده بنفس القيمة وفي مدة محددة، إذ ليس هنالك محاسبة فالجميع كل مدين للآخر بشكل أو بآخر والكل سوف يسترد دينه طال الزمان أم قصر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وليس بالضرورة من نفس الشخص المدين له، بل إن من يعطي لأي من كان هو في واقع الأمر يرد العطية ويسدد دينا سابقا عليه للمجتمع. هذا النمط من المهاداة يشكل جزءا لا يتجزأ من مضامين العلاقات الاجتماعية المستمرة بين أفراد المجتمع بما تنطوي عليه من التزامات مشتركة واعتماد متبادل، فالكل متكاتفون متعاونون بعضهم يشد أزر بعض، حسب ما تمليه العادات والتقاليد وكافة القيم الاجتماعية. من يمتنع عن مد يد العون للمحتاجين أو يتلكأ عن رد ما يمنحه له الآخرون مع قدرته على ذلك يعرض نفسه للسخرية والنبذ. ومن المنطقي أن تسود

المهاداة الشمولية بين أفراد يعيشون متجاورين متقاربين بما يسمح باسترداد العطية ولو بعد حين. أما الجماعات المتباعدة التي لا تتلاقى إلا بالصدفة أو في مناسبات معينة وعلى فترات متقطعة ومتباعدة فإنه يسود بينها نمط المهاداة التعادلية التي تضمن للمعطي التعويض عن عطيته بما يعادل قيمتها خلال فترة زمنية محددة. المهاداة التعادلية تسود بين الجماعات التي تقطن بيئات طبيعية تختلف في مواردها أو بين جماعات تزاول نشاطات اقتصادية متباينة مثلما يحدث بين الرعاة الذين يقايضون منتوجاتهم الحيوانية مع المزارعين الذين يحصلون منهم على ما يحتاجون إليه من منتوجات زراعية مثل الحبوب والتمور. أما المهاداة السلبية فهي، كما يقول سالينز، محاولة الحصول على شيء مقابل لا شيء كما يحدث في أعمال الغزو والسلب والنهب التي تحصل بين الغرباء الذين لا تربطهم صلة القربى. لكنني هنا أريد أن أصحح مفهوم المهاداة السلبية، فهي لا تعني الحصول على شيء مقابل لا شيء، وإلا لما أصبح هناك تبادل. ولو أخذنا بتعريف سالينز لهذا النوع من التبادلية فإنه سيؤدي في نهاية المطاف إلى القضاء على الطرف الذي يؤخذ منه ولا يسترد شيئا بالمقابل. لذا ينبغي تعريف المهاداة السلبية بأنها تتحدد بالأسلوب الذي يتم به التبادل، إن كان بطريق السلم أو بطريق الحرب، على أن يتحقق التعادل بين الطرفين على المدى الطويل. ومفهوم التبادلية متأصل عند البدو وهو عندهم من العمومية بحيث يشمل حتى تبدل الأحوال وتبدل الحظوظ، كما في أقوالهم المأثورة **مثل الدنيا يوم لك ويوم عليك** وقولهم **سعود تراقل** أي أن الحظ قد يحالفك اليوم ثم يحالف غريمك في اليوم الآخر. ويتحدثون عن حروبهم وغزواتهم وعمليات السلب والنهب على أنها من نوع الهدايا والقروض المتبادلة فيما بينهم والتي سوف تُسترد وتُستوفى إن عاجلا أو آجلا بحيث يتعادل فرقاء النزاع على المدى الطويل. ويشيرون في أشعارهم إلى أن الغزو والسلب والنهب قروض متعارف عليها يتبادلونها فيما بينهم وتقرها أعرافهم، كما جاء في قول مبيريك التبيناوي الشمري من قصيدة يخلد فيها وقفة أبا الوْقَيّ الشجاعة أمام عقاب العواجي العنزي:

أبا الوقَيّ يالبيض خَضِّبِن يمناه انا اشهد انه من رفاع الحمايل
السيف من يمنا عقاب خذيناه والخيل بِدّل كدشها بالاصايل
هذي قروضٍ بيننا يالقراباه ياحلو بيع المنسمح يابن وايل

ويشير البيت الأخير إلى أنه كلما كان رد القرض سريعا وميسّرا "منسمح" كلما كان أحلى. ويقول مطلق ابن الجبعا المطيري في مقتل فرسه في كون دخنة بين قحطان ومطير والذي قتلها ناصر ابن عمر ابن هادي ابن قرمله القحطاني:

ضِرْبَت برمحٍ ساطيٍ به شناشيل من كف ناصر مهديٍ به عليّه

ويشبه شليويح العطاوي المحاربين الذين يتطاعنون بالرماح بمن يتبادلون الهدايا فيما بينهم:

طلحـــه نحـــو عَنّا بريه يســـارهم من بـيـنـهـم دهـم الـعـــــروق هـداوي

ويقول راكان ابن حثلين:

وعـــدوّنا لازم نجـــيـــه بـهـــديّه ملزوم نجـعل حلّتـــه مـــرمـــهـــانِ

ويقول الشنفرى:

جـزين سـلامـان بن مـفـرج قـرضـهـا بمـا قـــــــدّمـت أيـديـهـم وأزلـت

ومن طريف التشبيهات تشبيههم الغارات التي يشنونها على أعدائهم أو الطعنات والإصابات التي يتبادلونها في أرض المعركة بالولائم التي يتكرّمون بها على بعضهم البعض. يقول عمرو بن كلثوم:

نـزلـتـم مـنـزل الأضـــيـــاف مـنـا فـعـجّلنا القِـرى أن تشـتـمـونـا

قـــريـناكـم فـعـــجّلنا قـــراكم قُـبـيـل الصـبـحِ مـرداةً طحـونـا

ويقول الفرزدق:

وأضـــيـــاف ليل قـــد نقلنا قِـــراهم إليـــهم فـــأتلفنا المنايا وأتلفـــوا

قـــريـناهم المأثورةَ البـيضَ قـبلـهـا يـثج الـعـــروق الأيـزنـيّ المثـــقـف

وكل قـــرى الأضـيـــاف نُقـري من القنا ومُـــعْـــتَـــبِطٍ منه السنام المسـدف

ويقول عبدالله ابن هذال:

لحـيث عندي للمـسـيّـر جِـمـالـه مـا انسـاه لو اسـرح بجـول الخنازير

أجـيـــه بالويلان نقـــوة رْجـالـه كِـتْع الجـمـوع مـهـدّمين الطوابيـر

ويقول راكان ابن حثلين:

نبي نسـوّي للمـسـيّـر كـرامـه شلفٍ على شـهبٍ سـريعـات الاولام

وتمعن في هذه السالفة عن شليويح العطاوي التي رواها حفيده خالد للباحث مارسيل كوربرسهوك:

> شليويح غزى على قحطان وراح معه قوم واجد وصبه الله على اباعر المِدْلى في علاوى الصراديح، أودية تهد من ورا التيس. صبه الله على اباعر المدلى، قطيعين، العِفر والمجاهيم. يوم جا على راس الحول وهو قاطنٍ على عد الغثمه، الغثمه في وادى الجرير غرب شمال عفيف، يوم جا على الحول وليا راعى الذلول جايٍّ يسوق لين نوخ عقب صلاة العصر عند نحر بيت شليويح. ضيّفه شليويح وبات عنده، ما تعلّمه ولا اخذ منه. يوم اصبح قال: ياشليويح انا ضفتك البارح واكرمتني ولا قصرت ولا اخذت علومي. قال: الله يحييك على البطا والا على السرع. قال: انا قاسي المدلى القحطاني راعى البل المعطّنه هذي المغاتير. قال: الله يحييك يالمدلى من حين سرت لان جيت واللزوم اللي جيت ابها ابشر بها واباعرك قم استقها من تاليها من المعطان. قال: انا ما جيت ادور اباعري ياولد ماعز، اباعري اخذتها على وضح النقا، أسلاف بيننا وبينكم، تاخذونها منّا وترده علاكم، ولا جيت ادوّر اباعري، انا جيت للزومٍ بسيط اباك تتمها لي. قال له: تم. قال: انا جيت للباكور اللي على رقابها، الباكور انك تخليه على ارقابها شاهد لك دايم. قال: وتم. ومن هاك اليوم، من حين اخذ اباعر المدلى لهذا التاريخ وهو وسمٍ لذوي شليويح، الباكور بين المطرقين العطاوي على مدق الرقبه من يسار. وسمي انا هالحين آسمها على اباعري، الله الله (Kurpershoek 1995: 142-58).

العلاقات الاقتصادية في المجتمع البدوي يسودها مبدأ المبادلة والمشاركة وتتحكم فيها القيم الثقافية والاعتبارات الاجتماعية أكثر من المادية والنقدية. هذا مما يشجع على تصريف الفائض الإنتاجي في عمليات قد تبدو غير مربحة بمفهوم اقتصاديات السوق، غير أنها تشكل رصيدا اجتماعيا، بل وسياسيا، يعزز من سمعة الرجل ومكانته ونفوذه في المجتمع القبلي. الكرم من الخصال التي تقود المرء إلى الزعامة وتخلد اسمه في عالم الشعر والأسطورة وفي أحاديث السمر و التعاليل، مثل ما خلدت اسم حاتم الطائي والجربا وابن مهيد الذي يحمل لقب مْصَوّت بالعشا لأنه إذا جن الليل اعتلى أحد رجاله أعلى رابية قريبة منهم وصاح ينادي بأعلى صوته لأي جائع يريد العشاء أن يقبل إلى بيت ابن مهيد. معظم الناس في البادية يعيشون على حافة الجوع، وما أكثر ما يمضون الليل، خصوصا في فصل الشتاء، يتضورون من الجوع ويرتعدون من البرد. كان الناس في حاجة وكان للبذل قيمة. كرم الرجل هو المحدد الأول لنظرة الناس إليه ومكانته بينهم وشهرته في أحياء العرب. إنه نوع من أنواع الاستثمار لكنه استثمار في السمعة الطيبة والذكر الحسن. وعبر عن ذلك بوضوح محمد ابن منديل من قصيدة له يخاطب فيها ابنه زيد، خصوصا في البيتين الأخيرين من قوله:

يازيد انا باوصيك مني وصيّه ... وصيّة عودٍ مبهماتٍ سدودَه
أوصيك بالضيف الذي قد لفت به ... بليلٍ وولد النذل باحلى رقوده
قم له الى ما نام غيرك عن القْرى ... ولا تحسّب للخساره وكوده
قل مرحبا ياضيفنا وسط بيتنا ... الاجواد تِقري ضيفها من وجوده
فلا بد ما يقفون باكوار ضمّر ... للاجناب ياعيد الهجافا بكوده
يعدّون ما قد فات منّك من الثنا ... الاجواد يبدون الثنا في ردوده
لولا الثنا ما صار للجود باعث ... ولا للمراجل طاريٍ ومعدوده

ويقول ابن هذال:

الصيت لولا فاعل الجود ما شاع ... ولا ساد في قومٍ بخيلٍ مْذِلّ

والرجل الكريم لا يكتفي بتقديم حليب الإبل لضيوفه، وإن كان في ذلك ما يكفي لسد رمقهم، بل إنه ينحر لهم الجزر ويطعمهم اللحم. يقول عوف بن الأحوص:

إذا الشول راحت ثم لم تُفْدِ لحمَها ... بألبانها ذاق السنانُ عقيرها

ويقول الأخطل:

إذا لم تذد ألبانُها عن لحومِها ... حلبنا له منها بأسيافنا دما

ويقول خلف أبو زويد:

محنّي خشوم الفوس من شمّخ النيب ... اللي يعيشون العرب من حليبه

ومن طقوس الضيافة عندهم أنهم إذا نحروا للضيوف يصيبون شيئا من دم الذبيحة المسفوح ليحنّوا به أعناق مطاياهم. يقول دغيم الظلماوي:

مع كبش مصلاحٍ لك الله نجبّه من مضرب السكين نْحَنّ الركاب

وهم يفعلون ذلك لسببين: أولا ليعرف من يحلون به لاحقا قدر هؤلاء الضيوف وأنهم أهل لأن يُنحر لهم مثلما نحر لهم مضيفهم السابق، وثانيا لتكون رؤية الدم على أعناق المطايا باعثا لأن يسألهم من يقابلهم من الناس عن مضيفهم الذي نحر لهم فيخبرونهم ويسهبون في الحديث عن جوده وسخائه وكرم ضيافته فيشيع إسمه ويشتهر بين الناس بكرمه. وهذا بيت لعبد قيس بن خفاف يشير فيه إلى أن الضيف حينما يعود إلى عشيرته ويتحلق القوم حوله ليسمعوا أخبار رحلته فإن أول ما يحدثهم به المحطات التي توقف بها وما لقيه في طريقه من كرم الضيافة:

واعلم بأن الضيف يخبر أهله بمبيت ليلته وإن لم يسأل

ويقول محمد ابن عبيكة في هذا المعنى:

وان جن مع الخل الشمالي دعاثير شرهين باليمنى نْحَنّي رْقابه
ان سانعت نحط كَبْشٍ على المير وان عاضبَت يسِدّ قولة هلا به
نَبي لْيا مّدوا وَقفّوا على خير وتوافقوا من شاف شَيٍّ حكى به[1]

وعادة تخضيب رقبة الدابة عادة جاهلية لكنهم كانوا في الجاهلية يخضبون نحر الفرس السابق في الصيد. يقول ابن سعيد الأندلسي في **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** "وكانوا إذا أرسلوا الخيل للصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة له" (أندلسي ١٩٨٢: ٧٩٠)، ويستدل بقول امرئ القيس:

كأن دماءَ الهاديات بنحرِه عُصارةَ حِنّاءٍ بِشَيبٍ مُرَجّلِ

وفي قصائد المدح والفخر يسترسل الشعراء في وصف ما تجده في بيت الرجل الكريم من البذخ في الضيافة ومظاهر الكرم. بيته كبير متعدد الأعمدة مبني على ربوة عالية يراه المسافرون من بعد. ويجلس صاحب البيت إلى ناره العظيمة ونجره النحاسي الكبير الذي يطرقه بنغمات موقعة تتفاوت بين الرنين إذا ضرب بيد الهاون على قاعه وبين الخنين إذا ضربها على الجنب. كما يتحكم بصوت الهاون عن طريق الإمساك بحافته لكتم الصوت أو إطلاقها لإطلاقه. وكلما كبر حجم الهاون كلما كان صوته أقوى وأبعد مدى وأبلغ تأثيرا في استدعاء أهل النجع والضيوف الذين يتوافدون إلى صوته ليجدوا صاحب البيت قد نحر لضيوفه الإبل والغنم السمان، ويستطرد بعض الشعراء في وصف انشغال العبيد والإماء بتقطيع اللحوم، فلا تسمع إلا أصوات الفؤوس تقطع الجزر المنحورة للضيوف ولا ترى إلا الجفان الضخمة تمتد مملوءة بتلال من اللحم والطعام. ومن أجمل قصائد المدح قصيدة قالها رميح الخمشي يمدح مقحم ابن مهيد يبدأها بالحديث عن ركب مسّهم الجوع والإعياء في ليلة شديدة البرد ثم يصف الرخاء والنعيم الذي يجدونه في بيت ابن مهيد:

---

(١) **دعاثير**: من مختلف الجهات وبغير انتظام. **شرهين**: نطمح إلى. **سانعت**: جاءت لنا الدنيا على ما نريد. **عاضبت**: جاءت لنا الدنيا على غير ما نريد. **توافقوا**: تقابلوا.

ياراكبين اكوار حيلٍ مواجيف ... كَمّل شحمهن والملاكد مجاهيم
عوجٍ لحْاهم من لْطَمْهم مشانيف ... غير السوالف والتلطّم مصاويم
مع سهلة ما به شبوح وتشاويف ... كود الحباري شوفهم واشقح الريم
بليل الشتا عِدّه نهارٍ من الصيف ... غربيّةٍ تلقى بها شِرّد الغيم
غربيةٍ تومي بقشع الشفاشيف ... تنفر بها جل البكار المراويم
يزمي لكم بيتٍ يْخَرّع لْيا شيف ... ويبهج كبود اللي كْلاهم مهاضيم
بيت الصخا ريفٍ لْيا كَمّل الريف ... بيتٍ قديم وللصخا دوم ومديم
بيت الذي يضحك حجاجه ليا ضيف ... ذبايحه جِلّ النياق المراديم
لزما الى جيتوه يطرب لكم كيف ... وانتم على البن المبهّر مضاريم
تلقون كيف وزايدينه تعانيف ... تسمع ورا القاطع ضريس الخداديم
كِلٍّ يبي مثله ولا هي على الكيف ... يزوم ليله مير ينكِل ليا ضيم[1]

منظر الشحم وشمه وتذوقه أحد المتع التي قلما تتاح للبدوي لذا فالشاعر يستلذ في وصفها والجمهور يتمتع بسماعها. الشحم والدسم والسمن والدهن، كلها رموز للخير والرخاء، والسنة التي يكثر فيها المطر والربيع يسمونها سِنْةٍ دسمه، على عكسها السنة الشهبا. ومن ملذات الدنيا التي يطمح لها البدوي أن يتناول طعاما دسما يتسرب دهنه من بين أصابعه إذا ضغط بيده على اللقمة. وبعد الأكل يمسح الضيوف أيديهم التي يغطيها الدسم بمقدمة البيت التي يتقاطر الدهن منها دائما لكثرة ما يمسح بها من الأيدي. وفي هذا المعنى كتب محمد العلي العبيد في مخطوطه النجم اللامع عن كرم هذال ابن فهيد الشيباني يقول "وقد شاهدت مقدم بيته وهو ينطف من الدهن وذلك ان عادة الاضياف متى فرغوا من اكل طعامهم عمدو الى مقدم البيت يمشّون ايديهم به فيكون الدهن تحته كالحبل الممدود" (عبيد: ١٢١).

ومن أبدع ما قاله الشعراء في وصف مراسيم الضيافة والكرم وما يتجمهر حول البيت من حشود المعتافين والجياع أبيات لعبدالله ابن سبيل يمتدح فيها فيحان ابن زريبان من ذوي ناصر من علوى من مطير. يصف ابن سبيل في البيت الثامن ما يجده الأضياف في بيت ابن زريبان من رغد وطيب عيش لدرجة أنك تستطيع أن تدهن الروايا من السمن الذي يتبقى في الصحون الفارغة بعد الأكل وترى السمن يتقاطر من مقدمة البيت لكثرة ما يمسح بها الضيوف أيديهم. ويصف نجر ابن

(١) **الملاكد**: جنب الناقة من حيث ما يلكدها راكبها بعقب قدمه ليحثها على سرعة السير. **عوج لحاهم**: اعوجت لحاهم من أثر اللثام.**مشانيف**: معوجّة. **التلطّم**: التلثم، لا شيء بقي لهم من زاد ولا ماء يستعينون به على الطريق عدا الأحاديث فهم صائمون عن الطعام لعدم وجوده. **شبوح**: أشباح. **تشاويف**: ما يُرى للعين. **بليل الشتا عده نهار من الصيف**: لشدة برده كأنه يوم من الصيف اللاهب. **غربية**: ريح تهب من الغرب. **تومي به**: تحركه. **قشع الشفاشيف**: الحشائش تنبت على وجه الأرض. **يخرع**: يخيف لكبره. **يبهج**: يدخل الغبطة والسرور. **كلاهم مهاضيم**: بطونهم خاوية من الزاد. **المراديم**: التي ارتدم الشحم على سنامها. **كيف**: قهوة البن. **مضاريم**: متعطشون.**زايدينه تعانيف**: أضافوا إليه كل أنواع البهارات. **القاطع**: ما يفصل قسم الرجال عن قسم النساء في بيت الشعر. **ضريس الخداديم**: أصوات الخدم يعدون الطعام. **يزوم ليله**: يتحمس للبذل. **ينكل**: يتوقف، يكف. **ليا ضيم**: إذا اكتشف أن التزامات الجود والكرم فوق ما يطيق.

زريبان بأنه لا يبات الليل لكثرة ما يسحق به من حب البن الذي يرمونه في محماسة كبيرة يحتاج ملؤها إلى ثلاث غرزات، والغرزة ملئ الكف. وتجد أكوام الرماد و تول القهوة أمام بيت ابن زريبان أشبه بأكداس الرمل المستخرجة من البئر المحفورة "نثيلة هباة" وناره تضيء ظلمة الصحراء ترى ضوءها من بعيد كما ترى شعاع الصبح. ولا يكفون عن إعداد القهوة وتقديمها حتى لا تجد أحدا ممن يضمهم مجلس ابن زريبان المحتشد بالضيوف وأعيان القبيلة من لا ينال نصيبه منها، حتى المنتزحين في أقصى المجلس. يقول ابن سبيل يصف وصول الركائب إلى بيت الممدوح:

العصر بالصمان عدل المشاةِ ... تلقى لعلوى به طوارف وعربان
والى نطحكم واحدٍ للمبات ... قولوا نخطّرهن على بن زِريبان
ردّوا سلام بكاغدٍ من دواةِ ... على ذوي ناصر وخصّوه فيحان
أهل بيوتٍ بالقسا بيّناتِ ... يَفرح بهن اللي من البعد صلفان
مرباعهم مدهل هل الموجفات ... ولا شدّن الا مستردّات وبْدان
أهل صحونٍ للفضايل مواتي ... يرمى بهن اذناب حيلٍ من الضان
نَدْوَه باثر ندوه يجون سْبحات ... ولا يِفْهَق الا محترى السور شبعان
الراويه تدهن من الفارغات ... والبيت ياكِف مقدمه دَثر الايمان
ومنارةٍ كنّه نثيلة هباة ... ونارٍ سناها مثل صبحٍ لْيا بان
مركى دْلالٍ نجرهن ما يباتِ ... مِحماسهن دايم على النار حميان
البن يصفق به ثلاث غْرزات ... تِنسف على المبراد والكيس مليان
وان فرّغ الطبخه والى ذيك تاتي ... ولا نازح المجلس عليها بْشِفْقان[1]

وقول ابن سبيل ندوه باثر ندوه ووصفه للضيوف والمعتافين والجياع في بيت ابن زريبان يذكرنا بقول الفرزدق:

نُعَجّل للضيفان في المحل بالقرى ... قُدورا بمعبوطٍ تُمَدُّ وتُغرفُ
تُفَرّغُ في شيزى كأن جفانها ... حياض جبا منها ملاء ونُصّف
ترى حولهنّ المعتفين كأنهم ... على صنمٍ في الجاهلية عُكّف
قُعودا وخلف القاعدين سطورُهم ... جُنوحٌ وأيديهم جُموسٌ ونُطّف

وقول الأعشى:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقي تُفْهَقُ
يروح فتى صدق ويعدو عليهم ... بملء جفان من سديف يدفّق
ترى القومَ فيها شارعين ودونَهم ... من القوم ولْدان من النسل دَرْدَق

وقد رفع الشعر العربي الكرم من مجرد ضرورة عملية تمليها طبيعة الحياة في الصحراء المترامية الأطراف إلى قيمة إنسانية كبرى، مما ساعد على تكريسها

---

(١) **ندوه باثر ندوه**: أفواج متتابعة. **سبحات**: حلقات. **يفهق**: يرفع من مكانه. **محترى السور**: من ينتظر السؤر، أي ما يتبقى في الصحون من الطعام بعد الضيوف والذي يقدم للأطفال ومن لا شأن لهم ولا قدر. **الفارغات**: الصحون الفارغة. **ياكف**: يقطر منه الدهن. **دثر الايمان**: مسح الأيدي بعد الأكل. **نازح المجلس**: من يجلس في آخر الديوان، يقول إنه حتى من يجلس في أقصى المجلس سوف يحصل على القهوة لوفرتها.

وترسيخها في النفوس حتى تحولت إلى سجية وطبع، إلى سمة شخصية يتميز بها ابن الصحراء. تحولت إلى سلوك نبيل يتضمن، إضافة إلى تقديم الطعام والشراب، البشر والبشاشة ومؤانسة الضيف بليّن الحديث وإزالة وحشته وتوطينه ورفع الحرج عنه والقيام على خدمته. يقول المقنع الكندي:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلا ... وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

ويقول عتبة بن بجير:

أحدّثه إن الحديث من القرى ... وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

ويقول عاصم بن وائل:

وإنا لنقري الضيف قبل نزوله ... ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ويقول الشاعر:

أضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحلِه ... ويُخصب عندي والمكان جديب
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

ويقول جحيش السرحاني:

ياعيال وان صرتوا ضيوف او معازيب ... سهل النبا ياعيال ملحة قْراكم

والعجيب أن مفاهيم الضيافة عند عرب الصحراء لم يطرأ عليها تغيير يذكر من حاتم الطائي حتى دغيم الظلماوي. فهم يوقدون النيران العظيمة ليلا ليهتدي بها المسافرون الجياع الهائمون في متاهات الصحراء الموحشة الباردة. ترتبط النار بالكرم ارتباطا وثيقا، وكذلك الدخان الذي يعني أن هناك طعاما يُعد، والرماد الذي يعني تكدّسه أمام البيت كثرة الضيوف. النار تطرد الوحشة وتضيء ليالي الصحراء المظلمة وتجلب الضيوف الذين هم بحاجة إلى الكن والدفء بقدر ما هم بحاجة إلى الأكل والشرب. يقول حاتم الطائي مخاطبا غلامه:

أوقد فإن الليل ليل قر ... والريح يا موقد ريح صر
عسى يرى نارك من يمر ... إن جَلَبَت ضيفا فأنت حر

ويؤكد الشعراء قديما وحديثا على أن الضيف أحوج ما يكون إلى الضيافة والدفء في ليالي الشتاء الباردة. يقول مرة بن محكان السعدي، وهو في البيت الأول يؤكد ما سبق أن قلناه أن الكريم يبذل ماله تفاديا للذم ورغبة في المديح واكتساب السمعة الحسنة:

أقول والضيف مخشيٌّ ملامته ... على الكريم وحقُّ الضيف قد وجبا
ياربَّةَ البيت قومي غير صاغرةٍ ... ضُمي إليك رحالَ القوم والقربا
في ليلةٍ من جمادى ذات أندية ... لا يُبصر الكلبُ من ظلمائها الطنَبا
لا ينبحُ الكلبُ فيها غير واحدة ... حتى يَلفُّ على خيشومه الذنبا

لاحظ في هذه الأبيات أن المرأة هي التي تتولى الاعتناء براحلة الضيف، وهذه عادة البدو حتي المتأخرين منهم. ويقول حسن ابن فهد السريحي المطيري:

أنا هَواي ومنوتي تالي الليل ... خَبْط الركاب اللي عليهم قصيره

في ليلةٍ ومـــخـــالـطٍ بردها ســـيل فـيـهـا الذرى يسوى الدعاوى الكبيره
باشـــرتهم في دلّةٍ نصـــفـــهـــا هيل مع كـبش مـصـلاحٍ عْـصـوبه كـبـيـره

ومن جميل ما قيل في الكرم أبيات لعجاب ابن مبارك الحربي من الغيادين جماعة ابن بتلا حيث يقول:

لى ياهبـــــوب الريح هِبّي بخطّار لو كـــان مـــا نَدْري من اي القـبـــايل
هني بخطّارٍ على هجـــعـــة النار لى طاب نوم منقّـــضـــات الجـــدايل
الظفِـــر يذريه الولي والى الاقـــدار وراعى الكرم يعطيـــه مِنشى المخـــايل

ونعود إلى الحديث عن بيت مرة بن محكان السعدي الذي يخاطب فيه زوجته قائلا: ياربة البيت قومي غير صاغرة، وإلى دور المرأة في تبييض وجه زوجها إذا وفد عليه ضيوف، كما يصور ذلك شعراء النبط الذين غالبا ما تتضمن قصائدهم أبياتا يمتدحون فيها ربة البيت، كما في قول فراج ابن بويتل الجبلي المطيري:

ملفـــاك بيت بيّنٍ كِـــبِـــر جـــمـــران بيتٍ مـــخـــومس للطراقي ينادي
عند ايســـره تلقى ذبايح من الضـــان تحـــوفـــه اللي مـــثل ظبي الحـــمـــاد

دور المرأة، كما يصوره الشعراء، لا يقتصر فقط على إعداد الطعام الشهي اللذيذ للضيوف وإنما في معرفة قدرهم وتقديم ما يليق بمقامهم من الطعام، بدون تبذير ولا إسراف ولكن بدون تقصير في حقهم أو إبطاء في إعداد الأكل أو تقديمه نيّئا أو محروقا، خصوصا وأنه قد تصدف أن يفد الضيوف في أوقات غير تلك المعتادة لإعداد الطعام أو في وقت يكون فيه صاحب البيت غير موجود. وهناك حكاية يتداولها الرواة ويختلفون في نسبتها لكن مفادها أن ضيوفا حلوا على صاحب بيت لم يكن موجودا فقامت زوجته بالواجب. ولما قدمت لهم الطعام رحبت بهم معتذرة عن غياب زوجها قائلة: سمّوا الله يحيّييكم على كيس اللي ليا غاب وصّى والى حضر تقصّى. وهذا يبين مدى أهمية الترحيب ولين الجانب وأنه يحتل مكانة في نفوس الضيوف لا تقل عن أهمية الطعام. ومن القصص المعروفة في هذا الصدد قصة محمد ابن فهيد راعى الاسياح مع زوجته مطيره (فهيد ١٩٧٨: ١٢٩): والتي افتقدها لما توفيت وقال يرثيها بقصيدة معروفة مبينا مدى اعتنائها بضيوفه منها قوله:

مـــا مـــعـــجبن زينَه ولو هي نظيـــره قـــصـــدي تنومـــسني الى جـــون خطار
مع زينهـــا الوافي بهـــا زود ســـيـــره دبره وعـــــرف وكل شيٍّ بمقـــــدار
ان جـــيت للمطبخ الى فـــيـــه نيـــره تلقى الحطب عنده تقل شـــغل نجـــار
مـــا هيب خطو الدعله المســـتـــديره يجي العـــتـــيم وطامي القـدر مـــا فـــار

وهذه سالفة بنفس المعنى سجلتها من فراج العضّاض من قرية العظيم في منطقة سلمى:

هنا إنثىً لَه ثلاث اطباخ. ليا خْطَرَوا رَجلَه الخِطّار خَذى ثلاث اطباخ، والى منّه لقّم الثالثه قال: اقحصوا، للعشا أو للغدا. قِسم الله تعرّضوا بينهم مناجس خلق الله وطلّقَه. وهي تاخذ لَه دْغيريٍ من اهل اجا. هو، رجلَه الاول، خريصي، من اهل العراق، من الخرصه، مزبّنة الجلاوي. تجوّزت

الدغيري، وخَذى بنت آخيٍ له، اما خالةٍ لَه أو هي عمّةٍ لَه. يوم نوّخَوا عنده الخطار هكاليوم، هو مدْهَلٍ للخطار، قال: ياحبيبتي ترى ما دونهن باركاتٍ على كوع ترانَن عِدّي على خازوق. قالت: ابشر. يوم لقّم الثالثه قال ابويق على بنت الحلال. إلى والله تركّب القدر حديهن متهبّطه، حدى الهوادي، توّه تشِبّ. ما تعشّوا الخطار الا وجه الصبح. قلّط الضيفه. قال له هكالواحد: ليه ما جيت تعشى؟ قال: متعَشّيٍ العصر. قال: لا والله الا بك بلا. قال: واطير! بي مْيَة بلا. قال: وش تبي؟ قال: ابي فلانه. قال: فلانه بعير خراج، خذاه له شمري ولا انت وايّاه، فارقتك. قال: ودّي اقول لي كليمات، بلا شك ابيك تجي رجلَه وتسلّم عليه وتسلّم عليَه هي، وتعلّمُه بالقصيده، لا تقول القصيده الا وهي تسمع، خلّه تْحَضر. قال: سم. قال:

البارحه عيّى يلجلج نظيري ... ليا كن به سم الافاعي وذرنوح
روابع تعاولن في ضميري ... تْعَوات خلج البدو لمصافق الروح
أول نهاره بس ورد وصديري ... وتالي نهاره تلحق العزب وسروح
جِرميّةٍ عقب العشا لَه جضيرِ ... خوّارة قلبه من الولف مجروح
اعوي على غروٍ بعقلي خشير ... حطّه علَيّ فرّاض الاصباع ذابوح
مع السلامه وان ذكرتن بخير ... ياعل يذكركم بالاسرار وفروح
العام وانت لبيت اهلنا قصير ... ومشروبنا من صافي الجم نقروح
العام لي واليوم حظٌّ لغيري ... عسى يجيك من العواثير ساموح

يبي اغديهم يتشاينون هي ورجله الدغيري.

وان عاضبت عند المطوع واميرِ ... انخى شجاعٍ وافي الذرع ممدوح
ليا هد وارخى مرهفات الجفيرِ ... يقدي كما هيش سكن وادي الدوح
ياخد خلي ياشقاق الصويري ... زاهى البياض اللي به البار مكيوح
وله حجّةٍ مثل اصطفاق الغدير ... ياعين عِفْريٍّ عن القفر مزيوح
النهد فنجالٍ بكف الزهيري ... هيالعٍ من صافي البن مذروح

الزهيري قهوكي ابن رشيد.

والجلد لين مترهفات الحرير ... مع تاجرٍ دوّر بها زود مربوح
والريح ريح مروّكات الذرير ... بيوسط دكان بالاسواق مفتوح
قلب الخريصي تقل زجّار كير ... ياعل تالي غربته عندكم نوح
أذوى كما يذوي حصاد الشعير

قالت: ياخلف ابوي ردَّه. طبّت حدرتَه، تبيه، حليلَه الاول. قال: غدي لك نظَرٍ يافلانه؟ قالت: والله ياخلف ابوي لا بديدا. قال: تراك طالق، مير اركبه، خْذَه للخريصي. ما هْنَا عِدِّه هكالحين.

من أهم طقوس الضيافة في الصحراء إعداد القهوة وتقديمها. ويتضح لنا مدى تغلغل الطقوسية والرمز في إعداد القهوة العربية وتقديمها بمجرد مقارنتها بالقهوة التركية أو الأمريكية. بينما تتولى النساء في البادية جميع عمليات الطبخ وإعداد الطعام للضيوف نجد أن إعداد القهوة مقصور على الرجال فقط ومن شبه المحرم على النساء الاقتراب من أدوات القهوة، دع عنك إعدادها، أو حتى تناولها. الهاون الذي لا يفتر صوته والنار التي لا تنطفئ علامتان من علامات الكرم البارزة، وكثير

من الشعراء يفتخر بنجره الذي يتجمع على صوته الضيوف من مسافات بعيدة. وقد اشتهر نجر سعد ابن ناصر ابن مساعد، الملقب سعيدان، أو مطوّع نفي. وحاول الكثيرون عبثا شراءه منه. ويقول ابن عبيد في النجم اللامع أن شهرة ذلك النجر وصلت إلى درجة أن الأمير محمد بن عبدالرحمن الفيصل حينما مر بالقرب من نفي في أحد غزواته على عتيبة طلب أن يرى نجر المطوع. يقول المطوع في نجره حينما رغب دغيليب ابن خنيصر الاسعدي أن يشتريه منه:

نجر المطوّع يوم سامه دْغيليب هو يحسب اني عارضه للمبيعه؟
ابغي لْيا جونا هل الفِطّر الشيب أجواد مرفقهم عَدُوّ الشريعه[1]
أوّل قْراهم دَلّتينٍ بترحيبةٍ سهله بنفسٍ رفيعه ترحيب

إضافة إلى الموقع المتميز الذي يحتله موضوع القهوة في بناء القصيدة النبطية فقد خصصت بعض القصائد للقهوة كموضوع مستقل يستحوذ على أبيات القصيدة كلها، مثلها مثل الخمريات. ويختلف إلى حد ما شعراء الحضر عن شعراء البدو في طريقة تناولهم للقهوة كموضوع شعري. نجد الشاعر محمد العبدالله القاضي والشاعر محمد ابن مسلم والشاعر ابراهيم ابن جعيثن، كنماذج من شعراء الحضر، يتناولون القهوة من زاوية فنية بحتة تقتصر على الكيفية والخطوات التي يتم بها إعدادها، وينتهي الأمر بالشاعر الحضري أن يشرب قهوته لوحده وهو ينظم قصيدته. وقصيدة القاضي في القهوة جميلة لكنه في النهاية يقدمها هدية لعيون فتاة حسناء. لم يتمكن شعراء الحضر أن يستخلصوا من القهوة معنى إنسانيا ورمزا اجتماعيا. أما الشاعر البدوي فإنه وجد في القهوة لغة شعرية جديدة استطاع توظيفها لترسيخ بعض القيم الأساسية التي تتطلبها حياة الصحراء. يقدم الشاعر البدوي الفنجال الأول من الدلة إلى من يستحق المركز الأول من الشجعان والكرماء الذين يجمعهم مجلس شيخ القبيلة. لكنهم يصرفون الفنجال عن الجبان الذي لا يرافقهم في الغزوات، وعن البخيل الذي يربى قطعان الضأن والماعز لا ليقدمها طعاما للضيوف وإنما ليسمنها ويبيعها بثمن فاحش للكرماء الذين يضطرون لشرائها منه لإكرام ضيوفهم؛ هذا البخيل لا ينفك عن مضايقة هؤلاء الكرماء ومطالبتهم بأن يدفعوا له ثمن ما يشترونه منه من الضأن. اللئيم والنذل والذليل والجبان والبخيل لا يستحقون الفنجال. وأكبر إهانة يمكن أن توجهها للرجل هي أن تعيّره بأنه **مْعَقّب الفنجال**، أي أن هذا الرجل إذا وصله الساقي يتجاوزه ولا يناوله القهوة لأنه ليس من الرجال الذين يستحقون الفنجال. ما يستاهل الفنجال في عرف البدو إلا الرجل الشجاع الذي يحمي الظعينة ويدافع عن الذود ويرعاه في مواطن الخطر حيث يجود العشب، الذي يغزو ويعود بالكسب من القبائل الأخرى، الذي يرهب بصوته الأعداء إذا اعتزى أو انتخى على فرسه في وسط المعركة، الذي يكر مع

(١) **عدو الشريعه**: الجوع لأن الجوع يضطر الإنسان للنهب والسرقة وارتكاب ما يتنافى مع الشريعة من الأعمال.

أول المهاجمين ويحمي ساقة المنهزمين، الذي ينقذ في حومة الوغى الرفيق الذي قُتلت راحلته أو تَرَدّت ويفرّق عنه الأعداء، الذي يقطر رمحه دائما من دماء الأعداء. وقبل هؤلاء جميعا الرجل الكريم الذي تتكدس أكوام الرماد أمام بيته عاليا كنثيل البئر المحفور.

ومن أشهر قصائد القهوة قصيدة دغيم الظلماوي الموجهة إلى غلامه كليب وقصيدة هايس ابن مجلاد الموجهة إلى غلامه ذياب. يقول دغيم الظلماوي من قصيدة طويلة:

ياكليب شب النار ياكليب شبّه ... عليك شَبّه والحطب لك يجابِ
علَيّ انا ياكليب هيله وحَبّه ... وعليك تقليط الدلال العْذاب
وادغث لها ياكليب من سمر خبّه ... وشبّه الى منّه غفى كل هابي
باغٍ ليا شبّيتها واشلهبّه ... تجذب سراةٍ من بعيدٍ غيابِ
سْراةٍ بليل وناطحينٍ مَهَبّه ... متكَفْكفين وسوقهم بالعَقاب
بنسرية ياكليب صلف مهبه ... لى نَسْنَسَت لكن بها سم دابِ
لى باطن الهلباج خطو الجْلِبّه ... ياحلو خبط عْصِيّهم بالرقاب
أطمر لهم وابدي سلام المحبه ... لى دبّر الهيّن متين العلابي
سلامٍ احلى من شهاليل جبه ... واصفى من السمن الجديد العرابي[1]

ويقول هايس ابن مجلاد:

قِمْ سَوّ ما يجمد على الصين ياذياب ... بِدْلال يشدن البْطاط المحاديب
احمس والى مِن العرق فوقها ذاب ... استَدِن ما يجذب عليك الشواريب
الى انطلق من ثعبِتَه كنه خْضاب ... ورسٍ صِبَغ بِكْفوف بيض الرعابيب
عَدّه لمن قاد السرايا للاجناب ... له مَفْرسٍ يشبع به النسر والذيب
والثاني اللي لى لفى بيته رْكاب ... قِدّام بيته مثل جزر القصاصيب
والثالث اللي لى غَشى الزمل ضِبْضاب ... يرخص بعمره دون زمل الرعابيب
وباقى العرب يكفيهم التول لو شاب ... قَضّابة المجلس حمير المشاعيب
اللي نهار الكون يفزع بمصلاب ... كْبار الانفس ساهجين المواجيب

ولمدوخ ابن ظمنه قصيدة جميلة في القهوة يقول فيها:

البن كيفتها لمن يشترونه ... المشكل اللي جابها من بلدها
يامْسَوّي الفنجال لا تحرقونه ... واحذر عن الشعله تَعَدّى صِمدها
حتى يجيك مْحَمّرٍ كن لونه ... مِحّة جراده ظاهرٍ من جسدها
عَدّه على اللي ماضيات طْعونه ... زبن اللدوح اللي ترَدّى جَهَدها

---

(١) **الدلال العذاب**: الدلال النظيفة. **ادغث**: ضع على النار ولا تبخل. **سمر خبه**: أجود أنواع الحطب. **غفى**: نام. **هابي**: من إذا تكلم قال له الرجال "تْهَبا" بمعنى "إخسأ" لأنهم لا يحترمونه ولا يقدرون رأيه ولا يصدقونه. **متكفكفين**: ملتفّين بعباءاتهم. **سوقهم بالعقاب**: يسوقون مطاياهم بأعقاب أقدامهم ولا يسوقونها بالعصي لئلا يظهرون أيديهم خوفا من شدة البرد. **نسرية**: ريح شديدة البرودة. **صلف مهبه**: ريحها شديدة. **نسنست**: هبت. **سم داب**: كأنها لدغة الثعبان لشدة برودتها. **الهلباج**: الرجل الخامل. **الجلبّه**: المرأة الغليظة. **أطمر**: أقفز. **الهين**: من يستهين به الرجال ولا يقدرونه. **شهاليل جبه**: ماؤها العذب البارد، وجبّه مشهورة بعذوبة الماء.

وعـــــده علـى اللـي لابتـــــه يـدهلـونه　　في ربعَـــةٍ من راح منهـــا حَـــمَـــدها
وعَـــدّه على اللي لابتـــه يتـــبـــعـــونه　　مع دربـه الخلـفـــــه تْـفـــــاخِت ولـدها
وكِـــفّـــه عن اللي عند فـــرقـــه بشـــونه　　يمسي ويصـــبح ضـــابط لك عـــددها
علـى رْبوعـــــه طـايـرات عْـــيـــــونه　　ان بـاع شـــاتـه جـــاك حَـــزّة وَعَـــدها[1]

والفنجال عندهم له شأن خطير. فإذا كان في صفوف الأعداء فارس يخشون بأسه صبوا فنجال قهوة في مجلس الشيخ أمام جموع القبيلة وقالوا: هذا فنجال فلان، من يشربه؟ وشرب الفنجال بمثابة تعهد والتزام بملاقاة الفارس المذكور في الميدان وقتله، لذا لا يقدم على قبول هذا التحدى إلا شجعان القبيلة وفرسانها المعدودين. يقول ابن بليهد في حديثه عن مناخ الجنيفا ومقتل تريحيب ابن شري: "وقبل أن ينتهي القتال سكب مشعان أبو العلا فنجالا من الدلة ووضعه في مجلسه بين الفرسان وقال: هذا فنجال تريحيب، اشربوه، فأبوا، ثم ندب بنيه سلطان وجزا، ثم ندب العقيلي، ثم ندب مزيد ابن مغيرق قاتل محمد ابن حشيفان، فأخذ الفنجال فشربه، ثم قال له: يامشعان أنا أعلم أنك تُحب أن أُقتل، ولكني قد شربت هذا الفنجال، ووالله لإن رأيت تريحيبا لأقتلنه أو يقتلني" (بليهد ٢/١٩٧٢: ١١٨). ويقول ألاويس موزيل:

> إذا ما علم المهاجمون بوجود فارس مرهوب الجانب بين العرب الذين سيشنون الهجوم عليهم يأخذون كل الاحتياطات الممكنة للقضاء عليه. وفي الليلة التي تسبق الغارة يسكب العقيد بيده فنجالا من القهوة ويرفعه قائلا:
> "هذا فنجال فلان، من يشربه؟"
> فإذا ما أخذ أحد الحاضرين الفنجال وشرب القهوة وقال "سق الفنجال جاي، انا اشربه" فإنه ملزم بالبروز للفارس المذكور في الميدان. وعند احتدام المعركة يطفق يسأل ويكرر السؤال لكل من لاقاه:
> "من عيّن فلان ياهل الخيل؟"
> إذا لم يكن الفارس المطلوب موجودا ذلك اليوم على أرض المعركة فإن واحدا من قومه يتقدم عنه ويجيب "ياولد الحلال ما هو حاضر لو كان حاضر ما اتّقى عنك، لكن حاضرٍ من يسد مسدّه، مير قرّبها (المهرة) جاي".
> أما إذا كان الفارس حاضرا برز وقال "ياناشدٍ عن فلان هذا هو حاضر، وصلت إلى خير".
> ويتوقف رفاق الفارسين عن القتال ليتمكنوا من مشاهدة المبارزة "المْلاقا" ويتبيّنوا النتيجة. ويبدأ كلا الفارسين بإطلاق صرخة مرعبة ويعتزي بأعلى صوته ويضيف "لا تقول غترني وباقني، خذ حذرك وانفع حالك". ذعار السبايا وانا فلان، تبى تخوّفني وانت ترتعد" (Musil 1928a: 527-8).

---

(١) **المشكل**: الرجل النابه المتميز الذي هو مستعد لدفع ثمن القهوة واستيرادها من منشئها، هذا هو الذي يستحقها. **احذر عن الشعله تعدّى صمدها**: ينبغي ألا تعلو شعلة النار فوق حبات البن حتى لا تحرقها. **محمر**: لونها أحمر بلون مح الجرادة الذي يخرج من فمها. **اللدوح**: الفرس أو الذلول قصرت عن الجري والنجاء بصاحبها. **مع دربه الخلفه تفاخت ولدها**: لأنه ينهب الخلفة من مراحها ويترك حوارها يحن جزعا على أمه. **شونه**: عصاه الغليظة. **طايرات عيونه**: علامة الشح والطمع وسوء الخلق.

وبعدما يعود الفرسان من المعركة توقد النيران وتعد القهوة ويقدم الفنجال الأول للفارس الذي يستحق ذلك بفعله وبلائه في المعركة. وهذا ما قصد إليه شليويح العطاوي في قوله بعد ما انتصروا في كون طلال:

يامسوّي الفنجال خزز مدوخ وعدّه لابن صلال والجلاوي

ومثله قول عضيب ابن حشر:

وان لايعونا من وراها بمرواس عاداتنا نرخي حبال المصاريع
عاداتنا نروي شبا كل عباس دهم العروق اللي تبوج المداريع
عقبه تقابلنا على ضو مِقْباس قاموا يعدّون الفناجيل تجزيع
فنجال بنٍّ خنّته تقعد الراس والزعفران مْنَطّعٍ فيه تنطيع
أنا يْعَدّى لي ولو فيه جِلاس هرّاجة المجلس قعودٍ مهانيع
اللي لهم همزٍ ولمزٍ ووسواس في ساقة الاجواد همز وتراتيع[1]

ويقول العبيد:

وقد روي لنا قصة وقعة ضيف الله بن عقاب الذويبي من أكبر زعماء حرب وذلك انه نزل ماء يسمى ابو مغير وهو ماء بين القصيم والمدينة وكان الذي معه عرب قليل لأن قبيلتهم حرب كلهم قد انحدروا الى اسفل نجد فطمعوا فيهم قبائل من مطير غطفان يقال لهم الدياحين ومعهم اخلاط من قبائلهم فصبحوهم على غرّه واجتاحوهم وكانوا يزيدون عليهم في العدد اضعافهم وكانت خيل الذويبي واصحابه عددها قريب الخمسين فقتل منها سبع افراس في المعركه وقت الصباح وتغلبوا على الباقين واخرجوهم من البيوت خيلهم ورجلهم واجتمعوا في هضاب قريب من مائهم وكانوا ينظرون الى حريمهم ورجالهم الذين بقوا يُسلبون وعدوهم يهدم البيوت ويجمعون الاواني والفرش وكان عدد جيش العدو المغير سبع مايه وكان معقّل على طرف الماء ليس عنه ببعيد وكان الأمر اذا أراده الله كما تقول العرب يشجّع القوم واحد ويذلّهم واحد فقام فارس من حرب يدعى احْدجان بن دهيليس والدهاليس هم زعماء الفرده من حرب وكلهم من حرب كل يشهد بفروسيتهم فقال له ياضيف الله والله اني انظر بعيني ان رجلا اتا يمشي من البيوت من العدو فوقف على النساء الجلوس على نثيلة القليب وجعل يفك زمام حرمتك من خشمها فقال له ما بيدي حيله ياحدجان فالقوم الذين معه منهم من صدقه انه رأى ذلك ومنهم من يقول انه يريدها تهييج للزعيم فسكتوا قليلا ثم قال له ياضيف الله أريد اسألك هل نحن اذا حيينا اليوم ما نمت ابدا فقال له ضيف الله اننا سنموت اليوم او بعد اليوم قال فما انقطع كلامه الا وهو على ظهر جواده ثم اعتزى قائلا (خيال البلها احْدجان) اللي يريد الموت يالشردان يلحقني فركبوا خيلهم جميعا فاتبعوه مغيرين على الماء والعدو الذي فيه ولم يتخلف منهم احد حتى عبيدهم ورعيان ابلهم اغاروا معهم فصدف انها حينما غارت الخيل والعدو يطلقون ابلهم لتشرب من الماء وهي العير التي اتى عليها الغزاة فقصدتها الخيل ثم قشعتها عن آخرها ثم كرت عليهم الخيل والرجال والنساء فلم يدركون الهزيمه فقتلوهم الا القليل منهم

(١) **لايعونا**: تصادفنا وإياهم، والضمير يعود إلى القوم المغيرة. **وراها**: وراء الإبل قصدهم نهبها. **مرواس**: هو آخر المدى الذي تصله الفرس المغيرة ثم تعود منه. **نرخي حبال المصاريع**: نرخي أعنة الخيل لتجري بأقصى سرعة لها، وهذا دليل على شجاعتهم وعدم ترددهم فلا يحجمون ويكبحون خيلهم. **عباس**: الرمح، وكذلك **دهم العروق** تغير لونها لكثرة ما يمسكون بها ويستخدمونها دفاعا عن إبلهم. **تبوج المداريع**: ضرباتها تشق الدروع. **تجزيع**: يخصون بها ناسا دون الآخرين، يعطونها لمن يستحقها دون غيره. **خنته**: رائحته النفاذة. **منطع**: مضاف إليه بكثرة. **مهانيع**: مطأطئين رؤوسهم لذلتهم. **همز وتراتيع**: يمشون بالنميمة ويرتعون في أعراض الناس.

. . . لما نزل ضيف الله وجماعته على بيوتهم بعدما انتصر على الدياحين ومن معهم كما شرحناه سابقا فانهم بعدما نزلوا اوقدوا نيران المقاهي وبنوا المنهدم من البيوت واتوه ابناء عمه وعشيرته يهنئونه بالنصر ثم انه امر على رجل ممن حضره ان يقوم فيعمل له قهوه فلما فرغ منها قال لصاحب القهوه ضع الدله وضع الفناجيل وزنها ففعل صاحب القهوه ما امره به زعيمهم فقام ضيف الله بنفسه واخذ الدله بيد والفناجيل باليد الاخرى فوقف على راس احْدجان بن دهيليس وهو اول من قاد الغاره على عدوهم فصب له من القهوه وناوله الفنجال من يده وبادره بيمين مغلظه قائلا علي الطلاق من زوجتي التي تسمعني بالبيت ان تشرب الفنجال من يدي ولا تمسه يدك فشربه ثم ناوله ثانيا فشربه ثم ناوله ثالثا فشربه ثم وضع الدله بالارض ووضع الفناجيل بجانبها ثم قال ياصاحب القهوه صبها للجماعه وهذا يعد تشجيعا لقومه اللذين يجبنون حينما يواجهون الحروبات مع اضدادهم من القبائل فهو كالوسام الحديدي عند الدول التي يمنحونه بعض القواد الشجعان الجريئين (عبيد: ٣٠٠-٢).

ويقول ابن بليهد:

إليك ما حدثني به راشد بن هذلي المقاطي قال: كان من جماعتنا العلابية رجل شاب يقال له شبيب بن دوّاس، وهو من أفرس أهل زمانه وكنا قاطنين على بلد الشعراء، فتواعد الرؤساء أن يغزو على قحطان وهم يشربون مياه الحمرة (طُحَي) وما حوله لا يبعد عن الشعراء أكثر من مسافة يومين للماشي المجد على الركاب وقحطان في ذلك الحين أعداء لنا وليس لهم جار يحميهم منا وغزونا برأي رؤسائنا الحمدة وهذّال بن فهيد الشيباني، وكان عدد الركاب خمسمائة ذلولا وعدد الخيل ثلاثمائة فجدينا في السير والسرى وصبحناهم وهم غارّون، فأخذنا إبلهم وجئنا بها إلى أهلنا نحدوها على الخيل ونحدوا وهذه عادة لمن آب بالغنيمة، وبعد إيابنا أقمنا عشرة أيام ثم مشى الذين لم يغزوا إلى الرؤساء وقالوا لهم اغزوا بنا ثانية إلى قحطان لعلنا نغنم كما غنم أصحابنا، فقال الرؤساء: اربحوا العافية ما كل يوم غنيمة، فذهبوا إلى الرئيس الكبير هذال بن فهيد وقالوا له: نريد أن تغزوا بنا لعلنا نغنم كما غنم أبناء عمنا، وإخواننا، فقال إني أخشى عليكم من قحطان ويمكن أنه قد بعث بعضهم لبعض وحشدوا في انتظاركم فكأن هذا الرئيس يرى بعينه فألحوا عليه، وقال: لا بأس أنا أغزو بكم ولست مسؤولا عما يحدث فضرب لهم موعدا أن يجتمعوا على دلعة وهو منهل ماء يبعد عن الشعراء مسافة يوم لحاملات الأثقال وهي في الجهة الجنوبية منها وكان عند القاطنين على بلد الشعراء رجل على راحلته من القحطانيين المغزوّين، فانطلق على راحلته في سواد الليل وأخبر قبيلته فقال: إن عتيبة أتوكم ثانية فاتّعد القحطانيون جبيلات الزبيدي وأسندوا ظهورهم إليها وبعد ممشى الغزاة من أهلهم بيومين نأتي على خبر شبيب بن دواس سالف الذكر اجتمع الفرسان عند الرئيس هذال بن فهيد الشيباني وأخذ رجّاله الدلة ليصب القهوة وكان شبيب بن دواس غلام صغير فلم يعطه صاحب القهوة إلا آخر الناس، فالتفت الغلام إلى هذال وهذال لا يعرفه فقال له: ياعم ما السبب في صاحب قهوتك يوزعها هنا وهناك؟ قل له يقص ولا يخص، فقال له هذال: (يستحق الفنجال الذي قد بان له أفعال). فلما أصبحوا ورأوا إبل الأعداء أمرهم رؤسائهم بالغارة، وكان شبيب بن دواس على فرس سابق تلحق ولا تُلحق، فأخذ العتبان إبل القحطانيين وظنوا أن هذه كالأولى، فانقلبوا بها فما شعروا إلا والخيل محدقة بهم من كل جانب وهذي عزاويهم: (خيال الرحمان وانا ابن درّاج) (خيال سمحات الوجيه وانا ابن عاطف) (مبعد مساريح البكار وانا ابن روق) فافتك القحطانيون إبلهم وظن العتبان أن القحطانيين اكتفوا بإبلهم ولكنهم لم يكتفوا بها فانهزم العتبان، وجاء فارس من قبيلة السحمة من قحطان على جواده، فكان مصلح بن فهيد على

راحلته، فطعنه برمح فقتله، فكان الرئيس هذال بن فهيد يرى قاتل أخيه مصلح ولم يتمكن أن يأخذ الثأر به، وكان شبيب بن دواس يراه فقصده وتمكن من قتله فقتله وأخذ جواده، وقصد هذال واعتزى أمامه وقال: (خيال البلها شبيب) والتفت إلى هذال وقال: استاهل الفنجال يابن فهيد والا لا؟ قال: تستاهل الدلة كلها (بليهد ١٩٧٢/٥ : ٣٧٢-٣).

من هذه المعطيات علينا أن نفهم قول عمرو بن كلثوم:

صَـــدَدْتِ الكأسَ عنا أم عـــمـــروٍ وكـــان الكأسُ مـجـــراها اليـــمـــينا

وقول الآخر:

إن كُنْتِ ســـاقـــيـــة المدامـــة أهلـهـــا فـــاســـقي على كـــرمٍ بني همّـــام
وأبا ربيـــعـــة كلهـــا ومُـــحلمـــا ســـبـــقـــا بغـــاية أمـــجـــد الأيام

وكما يشير البيت الأخير من هذه الأبيات التي قالها ولد عقاب العواجي فإن الشجاع هو الذي يحق له التلذذ بمتع الحياة وملذاتها تقديرا لشجاعته واعترافا ببطولته، والتي هي بالنسبة للبدوي في صحرائه الشحيحة القاحلة، وكما تحددها قصائد المدح، تتمثل في شرب القهوة وأكل الشحم والاقتران بالفتاة الجميلة:

ان كـــان مـــا ليّنت بالحـــبل ليّـــه ما ني عـشـيـر اللي نهـوده مـزابيـر
ان مـــا نِطَحت الخـــيل عـــيبٍ عليّـــه لى وردّوهـن مـــثل افـــام الخنـازير
عـــيبٍ عليّ العـــزوه الوايليـــه واحـــرم من الفنجـــال وسط الدواوير[1]

الشجاعة والكرم قيمتان من أهم القيم المترسخة في ثقافة الصحراء العربية التي يتمسك بها البدو ولا يتخلى عنها الحضر، وهنا تبرز مرة أخرى ثنائية الغرس والذود. الشجاعة والكرم ترتبطان بالإبل عند البدوي وبالنخلة عند الحضري. يفتخر الحضري باقتناء النخلة ويستبسل في الدفاع عنها ويقدم ثمرتها طعاما للضيوف والمحتاجين، تماما مثلما يفتخر البدوي باقتناء الإبل ويستبسل في الدفاع عنها ورعيها في مواطن الخطر وكما يفتخر بتقديم لحومها وألبانها للطارق وعابر السبيل. ومنهم من ينتخي بغرسه مثلما ينتخي البدوي بذوده، فقد أفادني الصديق مارسيل كوربورسهوك الذي أمضى بعض الوقت مع الدواسر بمعلومات قيمة عن هذه القبيلة منها أن آل براز من الرجبان ينتخون بغرسهم المسمى جنفه ونخوتهم: **خيال الجنفا برزاني**.

ومن أشهر شعراء الحضر الذين تغنوا بالنخلة وبالغوا في الافتخار بها وأسهبوا في وصفها ووصف السانية زيد الخشيم من أهالي قفار الذي تعكس أشعاره ترسخ قيمة الشجاعة عندهم. وقصائد الخشيم قريبة الشبه من قصائد شاعر حضري قديم هو قيس بن الخطيم، شاعر الأوس في يثرب، الذي اشتهر بقصائده الحماسية التي تسجل ما دار بينهم وبين الخزرج من حروب ويفتخر فيها بدفاعهم عن نخيلهم

(١) **مثل افام الخنازير**: يشبه مناخر الخيل بمناخر الحنازير لسعتها، وكلما كان منخر الفرس واسعا كلما استطاعت التنفس بسهولة مما يعينها على الجري وعدم التعب بسرعة. **لينت بالحبل ليه**: كناية عن إطلاق العنان لفرسه في أثر العدو. **الدواوير**: نجوع البادية.

وبساتينهم، كما في قوله:

لنا مع آجا مِنا وحوزتِنا ... بين ذُراها مخارفٌ دُلُفُ
يذب عنهن سامرٌ مَصبِعٌ ... سود الغواشي كأنها عُرُفُ

قال زيد الخشيم عددا من القصائد الحماسية في النخلة، منها قصيدة قالها في بئره المسمى دفّاشه نختار منها بعض الأبيات. يفتخر زيد الخشيم في البيتين الثاني والثالث بشجاعة جماعته واستبسالهم في الدفاع عن نخيلهم واستقلال بلدتهم وإبائهم عن دفع الخاوة كما تفعل بعض القرى التي تذعن لحاكم أو تخاف سطوة البدو. ونستدل من الكلمة الأخيرة في البيت الثاني أن قيمة الخاوة التي كانت تدفعها بعض القرى للبدو أو الحاكم كانت تساوي عُشر الثمرة. ثم يصف همة أهالي قفار في ري مزارعهم بواسطة السواني التي يجلبون لها الإبل القوية السمينة حتى لا تتوقف عن العمل ليل نهار ويشبّه أصواتها بمزامير محمل الحج الشامي. ويقول بأن مياه الأمطار المتحدرة من أعالي الجبال الوعرة هي التي تغذي آبارهم بالمياه. ثم يصف جماعات البدو التي تتوافد إلى قفار وقت طلوع نجم سهيل للامتيار من تمورها التي يقول أنها من الوفرة بحيث تستطيع أن تؤمن جميع ما تحتاجه القبائل المحيطة بهم. وفي البيت الأخير يورد الشاعر مقارنة بين الإبل والنخل. لاحظ كيف تبرز ثنائية الحضارة والبداوة في نهاية القصيدة:

لي ديرةٍ سمر الغرايب قْبالَه ... بشرقيّ اجا يازين زمّة حيوره
بالسيف حامينه دَوالي رجالَه ... من كل طمّاعٍ يبي من عشوره
ما ساقت الخاوه لحْيٍّ عنى له ... وْلا ظَنّتي تِخّي بتالي عصوره
للغرس نِدْني من ضَرايب جْمالَه ... حِيلٍ قَنَت غالى الشحم في ظهوره
تجذب دْلَيٍّ مبهمات حبالَه ... من فوق مطويٍّ تساعل بكوره
لكن لجّات العساكر مَحَالَه ... أو محمل الشامي تطابل زموره
من فوق دفّاشه تعادى محالَه ... ومانٍ يحدّره الولي من وعوره
خَطْو الوديّه شلّتَه من هبالَه ... بوعٍ الى اصفرّت مثاني عذوره
حَزّة طْلوع سهيل ياما عنى له ... من البدو زافاتٍ تطابل سْفوره
لو جمّعت كل البوادي رْحالَه ... أقفت من الهِطْلي تَناضح سْيوره
البل يِنْتَف من وبرها عْقالَه ... والا الودايا عِقْلها من حجوره[1]

(١) **سمر الغرايب**: الجبال السود المقابلة لبلدة قفار، شرقا من جبل أجا المشهور. **زمة حيوره**: فروع النخيل السامقة في البساتين "**الحيور**". **دوالي رجاله**: رجالها الشجعان. **مبهمات حباله**: حبالها قوية. **مطوي**: البئر تطوى جوانبها بالحجارة. **تساعل بكوره**: بكراتها، أي محالها، تصدر أصواتا لا تنقطع لكثرة ما يمتحون الماء من ابارهم لسقيا نخيلهم التي يكرمونها بإغداق الماء عليها، ثم يشبه أصوات المحال بأصوات العساكر أو صوت محمل الحج. **الوديه**: النخلة القصيرة. **شلته من هباله**: محملة بالثمر بشكل جنوني بحيث يصل طول الشمراخ إلى البوع، أي من نهاية الأصبع الأوسط في هذه اليد الممدودة إلى الجنب إلى نهاية الإصبع الأوسط في اليد الأخرى. **تطابل سفوره**: تتوالى قوافل البدو بدون انقطاع للامتيار من قفار لكثرة ما تثمره نخيلها. **الهطلي**: نوع من أنواع الرطب. **تناضح سيوره**: يتسرب الدبس من السيور التي تخاط بها الأوعية الجلدية التي يحمّلون بها التمر. **الودايا**: النخيل.

ويقول الخشيم من قصيدة أخرى أنهم، شبابهم وكهولهم الذين وخط الشيب رؤوسهم "ملظّبٍ لاح شيبه"، يتمنطقون بالمحازم المملوءة بالذخيرة ويجدّون في صناعة ملح البارود الذي يجلبونه من الشفا ويهيئونه للدفاع عن نخيلهم التي يقدمون ثمرتها طعاما للضيوف والمسافرين. وهم دائما متمنطقون بمحازمهم التي لا يخلعونها إلى أن يبست على أجسادهم وتحولت إلى ما يشبه كرب النخيل الناشف "كرانيف". لقد نذروا أنفسهم لخدمة بواريدهم التي لا تخطئ الهدف "عدلات المناظر" وأصبحوا كلاليف لها، ومفرد كلاليف هو كلاف، مشتقة من الكَلَفَة، وتعني العامل الأجير. ويستهل القصيدة بالحديث عن إعداد القهوة من البن النقي "عذي" الذي يسهر ليلا يحتسيه ليطرد به ما يثقل فكره من الهموم بينما الرجل الخامل "الزليبه" يغط في نومه:

لى ضاق صدري قمت اسوّي من الكيف ... فنجال بنٍّ ما يْغَبّب سريبه
بكرٍ على بكرٍ عَذِيٍّ من العيف ... يلذ لي لى نام خطو الزليبه
إلى ذْلِق بالصين كنه الى شيف ... سلك الحرير الى تقاود صبيبه
صبّه لممرورٍ براسه زعانيف ... اللي الى شبّت يصالي لهيبه
يثني على الربع المقَفّين بالسيف ... لى حل في تالى التفافيق ريبه
فينا مَحازِمنا سْواة الكرانيف ... وْمَعْنا خطاة ملظّبٍ لاح شيبه
صِرْنا لْعَدْلات المناظر كلاليف ... نَنْجِش لها ملح الشفا كل عيبه
لعيون غينٍ شَرِّكت تنثر الليف ... اللي شكى وارد قَناها عسيبه
بشرقي قفارٍ كنها مزنة الصيف ... شرقٍ عن البطحا بجازِع شعيبه
اللي نماها للمسايير والضيف ... يوم ان وِلْد النذل حارب قريبه

لاحظ كيف ينهي الخشيم هذه القصيدة الحماسية التي تتحدث عن شجاعته وشجاعة جماعته بالتأكيد على أنهم يتعبون في خدمة نخيلهم ويستميتون في الدفاع عنها ليس من أجل بيع الثمرة وجني الأرباح من وراء ذلك، وإنما من أجل تقديمها للضيوف والوافدين على بلدهم. فالشجاعة والكرم ميزتان مقترنتان في ثقافة الصحراء، عند البدو وعند الحضر. ومثلما أصبح العديد من شيوخ البدو مضرب المثل بكرمهم مثل ابن مهيد، شيخ قبيلة الفدعان الملقب بـ "مصوّت بالعشا" اشتهر كذلك الحضر الذين لم تنطفئ نيرانهم أبدا مثل ابن فهيد راعي الأسياح وابن قنّور راعي العين وناصر ابن لحيدان راعي جفيفا الذي امتدحه مبيريك الصعيليك وأشاد بكرمه وتقديمه للقهوة في قوله:

والله ما يرخص بصنعا بضاعه ... وابن لحيدانٍ على جاهد القاع
ما نفّدت كفّه من البن ساعه ... يكفي شهر للزوم قبّاص الاصباع

ومثلما تعكس أشعار زيد الخشيم قيمة الشجاعة لدى الحضر فإن أشعار العبيكة تعكس ترسخ قيمة الكرم عندهم. كان محمد ابن عبيكة فلاحا ناجحا ميسور الحال يملك مزارع في قريتي جبة وقنا واستطاع أن يحقق لنفسه ولأسرته سمعة

طيبة عند بادية الشمال لكرمه وأريحيته وأصبح أشبه بمحطة تموين للمسافرين والغزاة، خاصة وأن جبة وقنا تقعان في قلب النفود على مفترق الطرق، أو كما يقولون: **على سبع خلول**. وحينما كانت الإبل هي وسيلة المواصلات كانت الخلول أشبه ما تكون بالطرق المعبدة في وقتنا الحاضر. ومدح أحد الشعلان محمد ابن عبيكة وقال عنه:

حَطّاط تمر الحلوه ذَبّاح للخلاوي

ولا يقل عن محمد في الكرم ابنه مبارك الذي يقول فيه فهد ابن صليبيخ يصف كثرة الضيوف الوافدين عليه:

عليه سبع خلول من دور شَدّاد ابن عبيكه بالسنين الردايا

ويوجد أمام قصر ابن عبيكة في قنا مكان فسيح يسمى الغزالة تنيخ فيه ركاب الضيوف والوافدين حيث تلتقي هناك سبعة خلول كما ذكر ابن صليبيخ في البيت السابق. ويأتي ذكر الغزالة في قصيدة لابن عبيكة يشيد فيها بغرسه التي يشبه صفرة عراجيدها وأقنائها بزينة الفتيات اللائي يحتفلن في يوم العيد. ويفتخر بإكرامه للضيوف ويصف استبشاره بقدومهم وتقديمه لهم أفخر أنواع التمور، وهو تمر الحلوة، في أكداس كبيرة بحجم الجلاميد، وهي الصخور الضخمة، في إناء يسمى الطسل كما يشير إلى ذلك في البيت الأخير. ويشبه الغزالة في البيت قبل الأخير بمحطة البريد لكثرة ما يمر بها من الضيوف وأبناء السبيل:

لى واهَنِيّ من خَلّتِه بالتمني من خَلّتِه دنياه يمشي بْلا قيد
اربع غروبٍ فوقهن دوبَحَنّ صِفْر العراجد مثل حَقّالة العيد
ويامَا حلى يا منّهن رَوّحن مع الغزاله مودعاته براريد
نْحَيّي بهم من قبل ما يَبِرْكِنّ والطِّسِل من تمر الحْلا به جلاميد

ويقول مبارك مفتخرا بإكرامه للضيوف وتقديمه لهم الـ"مير" وهي كلمة مشتقّة من الميرة، وتعني تمر النخل التي يصفها بأنها غيدٍ مباكير. وفي البيت السابع يصف بشيء من البهجة والرضا عن النفس آثار ضيافتهم التي تظهر على وجه المسافر الشاحب الذي مسه التعب والسغب حالما يقدمون له أول فنجال من القهوة المعدة بتفنن وإتقان. وإضافة إلى التمر، فهم إذا ساعفتهم الظروف يذبحون للضيوف كبشا من الضأن يقدمونه على صحون مملوءة بالطعام ويحنون رقاب مطايا ضيوفهم من دم الذبيحة، تماما كما يفعل البدو. أما إذا لم تساعدهم ظروفهم فإن الشيء الذي سيجده الضيف عندهم دوما وفي كل الظروف هو الترحاب والبشاشة التي لا تفارق وجوههم. وأشهد على صدق ما قال فقد قمت شخصيا بعدة زيارات لجبة وقنا ووجدت فيهما ما لا يتصوره الإنسان من حسن المحادثة وطيب المعاشرة والكرم الأسطوري. وكعادة الشعراء يستهل القصيدة بالحديث عن إعداد القهوة. يقول إنه يجمع حزمة من عسب النخل اليابس "**ظفة جذامير**" ليوقد بها نارا عظيمة مثل نار

الحرب. ثم يحضر دلال القهوة ذات المناقير المعقوفة "هدف المناقير" ليضعها بحذاء الجمر بعد أن يخبو لهب النار. يقول ابن عبيكة:

يا ضاق بالي جبت ظَقّة جذامير ... وشَبّيت نارٍ مثل نار الحرابه
ثم احترفت وجبت هِدْف المناقير ... بِرْكَن على جمرٍ عَقاب التهابه
وحطّيت محماسٍ على مجنب الكير ... وفهقتها من قبل يبدي خرابه
احمس وْزَيّن حَمْسِتَه للمساير ... واللي لِفَثْنا من بعيدٍ ركابه
وْكبّه بْنِجْرٍ يا صهل كنّه الزير ... يجون لحسه لابسين العصابه
ولقّم بدلة مولعٍ به تفاخير ... من حب صنعا عابيٍ لَه زهابه
وْصِبّه على مثل الزبيدي مغاتير ... يا شافته العذرا تِمَنّى خْضابه
يامّا حلا توريدها عِقب تصدير ... ينقاد من سلك الحرير انصبابه
يا شَقّه الطرقي بَلَج بَلْجَة الطير ... بِشِعّ وجهه عِقب وَسْم الخلا به
يبرا لهن من مير غِيدٍ مباكير ... وِنْعَقّب الفضله على من هذى به
وان جن مع الخل الشمالي دعاثير ... شرهين باليمنى نْحَنّي رْقابه
ان سانعت نِحط كَبْشٍ على المير ... وان عاضبَت يِسِدّ قولة هلا به
نَبي لْيا مّدوا وَقَفّوا على خير ... وتوافقوا من شاف شَيٍّ حكى به

لاحظ كيف يؤكد في البيت الأخير على أن كل ما يطمح إليه من إكرامه لضيوفه وتقديم الطعام لهم هو كسب الصيت والذكر الحسن. وقد تطرق إلى نفس المضامين عيادة ابن مبارك ابن عبيكة في قصيدة له نورد بعضا منها. لاحظ الحضور القوي للقهوة في القصائد التي تدور حول كرم الضيافة، حيث أصبح تقديم القهوة العربية أهم طقس من طقوس الضيافة ورمز من رموزها التي توحد بدو الجزيرة وحضرها. وتتحدث الأبيات الأخيرة عن إبل الضيوف وحاجتها الماسة، هي ومن يمتطونها، إلى الراحة والطعام والشراب. ويؤكد في النهاية على أن إكرام الضيف سلم جْدودنا، أي نهجا لهم، شرعة ورثوها عن أجدادهم. يقدم لنا عيادة في هذه القصيدة برنامجه اليومي الذي يبدأ مع الفجر بحمس القهوة وتقديمها لضيوفه ولا ينتهي إلا في المساء بعد أن يقدم لضيوفه عشاءهم كبشا نحره إكراما لهم:

يا بان ضوّ الصبح قَلّطت محماس ... على وهج جَمْرٍ توقّد سناها
وكثّرت انا الطبخه على غاية الراس ... تِبري القلوب اللي تطارِد غَثاها
وْزَيّنْت انا الحمسه على الكيف بقْياس ... وكَبّيتها بالنجر حين استواها
نجرٍ ليا حرّك تقل ضرب نَحّاس ... دب الليالي ما يبطّل عواها
ولقّم بدلّة مولعٍ ما لها اجناس ... من حَب صنعا عابيٍ لَه عباها
وصبّه لمن حولك على الزبر جِلاّس ... هل السموت اللي بعيدٍ مداها
واثنه لممرورٍ على الخيل مِدْباس ... تِقْفي عْنه صم الرمك يا نِصاها
من فوق ما تاخذ على الخيل مرواس ... يا جدّعت زينات الانفس حْذاها
يقول عْياده هَرْجِةٍ ما بها باس ... تطرب لها كْرام اللحا من حلاها
طول الجدار وْقَصْرِة الرِّجِل نوماس ... يا عاد ما للرِّجِل داعٍ دعاها

تصـيـر بـعـيـون الرفـاقـه مـعك باس ... وان كـــان مـــا تِدْعى تَرُو من عـناها
خـلّك عـلـى بـابـك تـقـل لـون حـــــرّاس ... يا جـوا عليـهن مِـحْـتـريـنٍ عـشـاها
يا جن مع الخل الشـمـالي لهـا اضـراس ... والكل تشكي رِجلـهـــا من حـــفـــاها
نْحَـيّي بهم من قـبـل تجـديع الالبـاس ... نْقَلّط لـهـم تمر الحْـــــلا من نماها
ونذبح لهم كـــبشٍ يْرَبّى بالاطعـــاس ... نقلّطه من حين غـيـبـة مـســاها
هذات سلْم جـــدودنـا قـــبـل من راس ... واللـي بَعَـــدنا كـــان رَبِّي هداها

حكاية مبارك ابن عبيكة مع ابنه عيادة الذي كان يريد التخلي عن الفلاحة ليصبح بدويا يرعى الإبل حكاية طريفة تستحق التوقف. روى لي هذه الحكاية أهالي جبة وهي تصور ما يختمر في شعور الفلاحين الذين تقع قراهم على حافة الصحراء من نزوع نحو البداوة بما تمثله من خيار معيشي. تنتمي حمولة العبيكة إلى فرع الرمال من سنجاره من شمر؛ وغالبية الرمال بادية ما عدا سكان قرى النفود مثل جبة وقنا وام القلبان وموقق الذين يشتغلون في الفلاحة. بالإضافة إلى الكرم والسجايا الحميدة اشتهر مبارك ابن محمد ابن عبيكة وابنه عيادة بقول الشعر الذي يحث على مكارم الأخلاق والتمسك بعادات العرب الطيبة. كان مبارك حريصاً على غرس النخيل والزراعة من أجل تنمية موارده المادية حتى يستطيع القيام بالتزاماته تجاه الضيف والعاني والقريب والضعيف وابن السبيل. أما عيادة فإنه في مقتبل عمره كان مولعاً بالإبل وحياة البادية حتى أنه فكر بالتخلي عن حياة الحاضرة والالتحاق بالبادية لأن الكثير من الناس في ذلك الوقت يعتبرون البداوة أعز وأمنع من الحضارة. وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقة بين مبارك وابنه عيادة. وكان لهم بالإضافة إلى أملاكهم وفلائحهم أذواداً من الإبل تحت رعاية أبناء عمهم من بادية الرمال وأحضر مبارك ناقة من هذه الإبل وأمر العمال بعسفها على المنحاة لمتح الماء من البئر. ولما رأى عيادة ما تعانيه هذه الناقة من عذاب ومشقة بعدما كانت حرة ترعى السبط مع الراعي قعيس بايمن الخمس (والخمس مرعى طيب) قال معبرا من خلال تعاطفه معها عن حنينه إلى حياة البداوة ومقته لحياة الحضر الذين يصفهم بأنهم ناقلين المفاتيح كناية عن شحهم وتشددهم في الإنفاق وحرصهم على أمور الدنيا. ويشير البيت الأخير إلى أن البدو الذين يرغب عيادة في مرافقتهم، وهم قبيلة الرمال الذين يقطنون في الصيف بجوار جبة، نأوا عنه وانتجعوا قلب الصحراء:

يافـــاطري واعِـــزّتي لك من العَـــمْس ... الـلـه بـلاك بْـنـاقـلـين المـفـــــاتـيـح
عِـقِب صـلاح قْـعـيس لك بايمن الخـمس ... يرمى الســـبط عندك تِقِل رَقِم وْسليح
يـاقَـلـب هُـوْد عْن الـعـنـا يـامـل الـطـمس ... ياشين من كـثـر الـهـواجـيس مـا ثْريح
اللـي بْـبـــالك حـــال من دونـهـم رمس ... من دونـهـم مـــا يِثْـــعب الفِطّر الفـــيـح

فأجابه أبوه قائلا بأن الإبل خلقت لخدمة الغرس وإغداق الماء عليه ليجود بالثمر الذي يقدم متاعا للضيوف والمسافرين، لذلك فهم يجهدون إبلهم بدون مداراة ولا

شفقة "تركي على جنبه ولا له نداري". ويفتخر بأنه يكدس التمر للضيوف أكداسا عالية الواحد منها يشبه الطربوش في ارتفاعه. ويقدم إضافة إلى ذلك ما يجود به الرب من عيش ولحم "اللي عند ربي حضاري". وفي محاولة منه لصرف ابنه عيادة عن التفكير بالتبدي يؤكد الأب مبارك في قصيدته أن حياة الفلاح أرغد من حياة البدوي ويعرّض في البيتين الأخيرين بحياة البدو ومعاناتهم في القفار ويصورهم في توحشهم ونفرتهم من الإنس كالظبي الجافل:

يافاطري صِبّي على حِلْوة الحوش ... صِبّي على قفش الحلا والحماري
يالقرم خِدّام النخل كِنّس البوش ... نِرْكي على جنبه ولا له نداري
نبي ليا جونا مسايير وطروش ... نِحِطّهم بالقسم مثل الخباري
نبني لهم على الصحن تقل طربوش ... وهذاتي اللي عند ربي حضاري
يا جاك امير البدو كالظبي منجوش ... يا مار تمر القَسب مثل الخباري
هِبّيت ياراعي قطيعٍ بْخِرْبوش ... يِفِزّ الى شاف الونس والاثاري

ولما رأى مبارك تعلق ابنه بحياة البادية ورعاية الإبل وسماعه لمن يشيرون عليه في هذا الاتجاه وجه له قصيدة يقول فيها بأن الحضري يمكن أن يبلغ مبلغ البدوي، إن لم يتفوق عليه، في ميزة الكرم التي تعد القيمة الأساسية في ثقافة الصحراء. يقول مبارك لابنه عيادة إن كنت تريد العزة والمجد والسمعة فهاأنا قد جمعت لك هذا كله ومن أطرافه ووفرت لك كل الإمكانيات وما عليك إلا أن تثبت جدارتك. يقول مبارك لابنه لقد كدحت وكافحت حتى استطعت أن أشيد قصرا حصينا حلي العقاد كأنه في حصانته "عقده"، وهو مصطلح عندهم يشير إلى البناء الحصين، على شاكلة القلعة. ويذكر الأب الحضري ابنه الذي يريد أن يتبدوى بأن ما يقدمه للضيوف من كَرْمِه في اليوم الواحد يعيش عليه الإبن لمدة شهر كامل. وينهي القصيدة بحث ابنه على عدم الاستماع لكلام الحساد والوشاة. ويبدأ قصيدته بالشكوى من السهر حيث أمضى ليلته يتقلب كما لو كان مفترشا صخرا قاسيا "كالول":

البارحة عيني قِزاها النوادِ ... عِدّي على ياقرم الاولاد كالول
ابوك انا مانا خَطاة الرباد ... انشد عْني يا قالوا الزاد مقلول
بنيت لك قصرٍ حَلِيّ العْقاد ... ومزارع ومقاطرٍ يبرا لهن شول
وفتحت لك بابٍ وعنده مْنادي ... يامدوّر الطولات طِل به وانا اطول
بابٍ يبي من ينطحه بالجهاد ... مثلي تَرَن عن لذّة النوم مشغول
يلفي مناخي سبع خلولٍ وكاد ... مع كل خَلٍّ لافياتٍ تقل جول
انظر مناخ الجيش كان انت غادي ... تَرْ كَرْمتي يومٍ تعيشك الى الحول
صِبَرْت انا يوم السنين الشداد ... يوم انت بزرٍ والذي فيك مجهول
شِفْ لحْيتي بيضا عَقاب السواد ... يابد من تفريق الايام بالطول
ترى الحداري من وراها سناد ... ويابِدّ من بيتٍ على الحق منزول
حذراك عن شور البغيض المعادى ... من طاوع العدوان يِنْسَفْ على الكول

سـوالـف الاجـواد عند المهـادي ولا فـاد بالجـاهل كـثـيـرٍ من القـول
واعطـيـك مـن الاجـواد هـرجٍ يْـزادي وجـمـعـت لك من كل الاصناف مـبلول[1]

فأجاب الإبن مستغربا لهجة أبيه الهجومية والتي كما يشير في البيت الثاني أنها لا أساس لها وأنه لم يطلب من أبيه شيئا يثقل كاهله أو يسبب له أي خسارة. ويبدأ من البيت الثالث بمدح أبيه ويقول بأن الضيوف متى ما حلوا بساحته بعد السغب وعناء السفر قدم لهم التمر بوفرة كما لو كان الناس في وقت صرام النخل "الجداد". وبعد التمر الذي يقدم للضيوف حالما ينيخون ركائبهم، ويسمونه العريض كما يشير الشطر الثاني من البيت الرابع، يقدمون للضيوف المبلول، وهو طعام مطبوخ من فصيلة الثريد ويصنعونه من القمح الذي تنتجه مزارعهم. وفي البيت الثامن يعرض عيادة الصلح على أبيه ويقترح دفن الموضوع وأنه لا داعي لإطالة الجدال لأن كلا يعتقد صواب رأيه وكل له الحق في التمسك برأيه، ويقول بأن التغير من حال إلى حال، من الحضارة إلى البداوة مثلا، أمر طبيعي والتغير سنة الحياة. ويضرب مثلا بقصة هلهول الذي جاء إلى جبة ليعمل راعيا لماشيتهم بالأجر ثم تطورت أموره حتى اغتنى واستبدل عصاه التي كان يهش بها على الغنم بسيف صارم واشترى الأواني اللازمة لإعداد القهوة وأصبح يعد من الوجهاء وصار مقبولا لدى الجميع والناس يخطبون وده و زاد خطه، أي ارتفعت أسهمه، كما نقول بلغتنا المعاصرة، وكانوا في القديم حينما يقيّمون الرجال يخطون في الرمل خطوطا متفاوتة الطول وصاحب الخط الأطول هو الأفضل من بينهم. ويختم قصيدته بأبيات يتأسف على توتر العلاقة بينه وبين أبيه ويقول بأنه محتار كيف يرد على أبيه الذي يعتبره أقرب الناس إليه ولا يريد أن يجرح شعوره. ويعرض الإبن على أبيه أن يتوقف كل منهما عن ملاحاة الآخر وإلا فإن الإبن سيضطر للدفاع عن نفسه. وفي النهاية يؤكد لأبيه أنه بالرغم من كل شيء سيبقى ساعده الأيمن وابنه المخلص الذي سوف يسهر دوما على راحته.

الله لحـد من عِلّةٍ بيـفـوادي عَـيّى يْبَـرِّد لاهبـه كل شِـخْلول
وش مـوجبٍ تبني على غـيـر قـادي لا خـاسـرٍ شَيٍّ ولا عـاد مَـشْكول
ياريفـهن وقت السنين الشـداد لى اخطن رموع الوسم والسعر مقلول
لى جن تِقِل بايّام وقت الجِـداد وعقب العريض نْعَـقّـبِـه كل مـبلول
لا تنصح اللي تشـوف بارياه غـادي ولا ينصح الوارد حْذا كـود مـتـبـول
ولا هو مـريدٍ قـول من به سـداد ولا تنفع العلمه عـيـا كل مـهـبـول
ولا ينفع الماخـوذ صـوت المنادي ولا ينفع الشـاكي حَلى كل مـاكـول
اسـلـم وتـرّك عـنـك بـاق الـدوادي بالك تَحـرّك تعـتـرض لك لْنِشْـبـول

(١) قزاها النواد: هجرها النوم. الرباد: سيء الخلق. تقل جول: مثل أسراب الطيور. ترى الحداري . . . بمعنى "ما طار طير إلا كما طار وقع"، والشطر الثاني يؤكد أن الموت حق. ينسف على الكول: يتخلف عن الركب ويترك على قارعة الطريق. المهادي: له قصة بالوفاء مشهورة مع جاره السبيعي. مبلول: الثريد.

ربك عَـــقـــاب الشين رِحْم العـــبـــاد وْشِـــرِه على شب المعـــامـــيل هِلْهـــول
الســـاكن اللي قـــاعـــدٍ بالبـــلاد مع المواشي جـــامعٍ كل مـــحـــصـــول
بَدّل عـــســـيـــبـــه بيـــسنين الهناد مع الرفـــاقـــه زاد خَطّه ومـــقـــبـــول
يارب تِلحـــقني بغـــاية مـــرادي عِـزّاه يامنهـــو من الربع مـــشـــبـــول[1]
اقـــرب قـــريبٍ صـــايرٍ لي قْـــيـــادِ بَحَث خـــفـــاي ولا ادري كـــيف ابقـــول
ولا تِعْـــتِـــرض لي جـــوف كل البـــوادي ان مـــا هداك الله قل بي وانا اقـــول
انا صـــديقك يا ارتخن العـــضـــاد انـا الـذي ارفـع جـنـابـك عْـن الـكـول
انـا الـذي مـــا اطيـع هـرج الـدوادي والعين تســـهـــر يا بدا بيك مملول

نوستالجيا البداوة

مهما حاولت الحضارة بمنظوماتها الفكرية والأيديولوجية أن تضرب سياجا بين العربي وبين البداوة فإن لغته وشعره لن يسمحا له بالانسلاخ منها تماما، ومهما أوغل في التحضر تبقى البداوة الساكنة في موروثه اللغوي والشعري ماثلة في وجدانه كنموذج لعالم بطولي مثير وحياة فطرية جميلة ومادة لا تنضب للاستلهام الشعري، إنها النموذج الأصلي لحياة فطرية كل ما فيها بريء وجميل، فردوس مفقود. ويختزل المتنبي هذه النظرة في قوله:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وعبر عنها الألوسي في كتابه **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** حيث يقول "ولما كان سكنى البادية تقتضي صيانة العز والشرف رجحها غالب العرب على الحضر، وكثر حنينهم إليها، وذكر وحشها وطيرها ورياضها ونبتها وشجرها وأغوارها وأنجادها ورياحها ومياهها، ولا زالوا يفخرون في شعرهم بسكناها، قال القطامي: ومن تكن الحضارة أعجبته// فأي رجال بادية ترانا" (ألوسي ١٣١٤/٣: ٤٢٥). ويقول الألوسي في موقع آخر "الفرق بين سكنة البوادي وبين سكان البلاد والقرى مما يظهر لكل أحد وذلك في الأجسام والحواس الظاهرة والباطنة والصور والأخلاق والقوة والضعف ولهجة اللسان وسماحة اليد والجرأة والشجاعة وغير ذلك مما يطول ذكره حتى إن من وازن بين نبات البادية ونبات البلد وجد بينهما فرقا من وجوه مختلفة، وكذلك وحشه ودوارجه وسائر ما يكون في البر فإنه ممتاز عما يتكون في البلد في الخواص والأوصاف" (ألوسي ١٣١٤/٣: ٤٣٤).

لقد ظلت صورة البداوة في ذهن الحضري نموذجا مثاليا للفروسية والنخوة وكل ما هو رومانسي وجميل منذ العصر الجاهلي وحتى عهد قريب، وكان للشعراء، فصيحهم ونبطيهم، دور في تكريس هذه الصورة المثالية. النسيج الخيالي في الشعر

(١) **الله لحد**: تقال للتحسر والتعبير عن كثرة الأسى. **شخلول**: الماء الصافي البارد العذب. **على غير قادي**: على غير هدى. **لى اخطن رموع الوسم**: إذا شح المطر. **والسعر مقلول**: غلت الأسعار لنفاد الزاد. **لى جن تقل بايام وقت الجداد**: الركائب تفد عليهم طلبا للضيافة كأنهم من كثرتهم قوافل الميرة. **عيا**: جهل وعناد. **الدوادي**: الترّهات. **نشبول**: مشكلة. **مشبول**: وقع في مشكلة.

العربي بصوره ومجازاته واستعاراته مستمد من البيئة الصحراوية، كما يستلهم نفحاته الرومانسية ومثالياته من مشاهد الصحراء وحياة الرعي وقيم البادية. الشعر العربي، فصيحه ونبطيه، مُؤطر بروح البداوة ونظرتها التي تهيمن على رؤية العربي في بيئته الصحراوية وتتغلغل في تكوينه النفسي والوجداني. نستشف هذه المسحة البدوية في مواضيع الشعر التقليدية التي يغترف منها شعراء الحاضرة والبادية على حد سواء، مثل موضوع الأطلال والناقة وارتحال الحبيبة. سواء كان الشاعر بدويا أو حضريا فإنه سيبدأ قصيدته بالبكاء على الأطلال وعلى المحبوبة التي ارتحلت مع قبيلتها ويصور نفسه راكبا مطيته التي تمر به على مكان سبق أن جمعه بها فيغمره الحزن ويقف في المنزل المهجور يتفحص البقايا ويستنطق الآثار ويذرف الدموع على الحبيبة التي تفصله عنها مسافات الصحراء البعيدة الموحشة التي يتلف فيها الذئب لشدة وحشتها وقفرها من مقومات الحياة. ويهيم الشاعر على وجهه في الفلوات والقفار ممتطيا ذلوله النجيبة التي يستطرد في وصفها ويتحدث خلال ذلك عن الإبل كوسائل في جمع الأحبة وفي تفريقهم، ثم يخرج إلى وصف المطر والربيع وأزهار الصحراء وطيورها ووحوشها. ولكي يرضي أذواق مستمعيه ويلامس مشاعرهم يعمد الشاعر إلى تطريز قصيدته ببعض الألوان والخطوط المستوحاة من طبيعة الحياة في الصحراء كأن يتحدث عن النجوم والأنواء والمطر بمختلف مظاهره من سحب وبرق ورعد ليربط بأسلوب مجازي بين ذلك وبين قرب الحبيبة وبعدها.

تتحول هذه المواضيع عند الحضر إلى مجرد موتيفات فنية لأنها وإن كانت ليست غريبة عنهم تماما فهم لم يعايشوها ويلتصقوا بها مثل البدو. فإذا قال الشاعر البدوي مثلا أنه وقف على الأطلال أو اعتلى رجما يرقب منه أظعان الحبيبة أو أرسل قصيدة مع نجاب يمتطي راحلة نجيبة فإنه أقرب إلى الصدق من الشاعر الحضري الذي يتوسل بهذه المواضيع كمجرد مقدمات تقليدية. وقصائد الحب البدوية تحكي قصص حب حقيقية لأن المجتمع البدوي، بخلاف المجتمع الحضري، لا يحجر على المرأة ولا يرى في الحب ما يعيب. وقد مر بنا كيف يختلف شعراء الحضر عن شعراء البدو في طريقة تناولهم للقهوة كموضوع شعري، فالشاعر الحضري يشرب قهوته لوحده بينما وجد الشاعر البدوي في القهوة لغة شعرية استطاع توظيفها لترسيخ بعض القيم الأساسية التي تتوافق مع حياة الصحراء. كذلك قصائد الغزل البدوية التي تتحدث عن قصص حب عذرية وحقيقية ترتبط بالشهامة والفروسية تختلف عن قصائد الغزل الحضرية التي تتحدث عن مفاتن المرأة الجسدية والاتصال الجنسي في صور تقليدية مكررة دون الغوص إلى أعماق التجربة الرومانسية ومعطياتها السكولوجية والذهنية. كذلك قصائد الإخوانيات التي يتبادلها الأدباتية من شعراء الحاضرة والتي غالبا ما تتضمن الشكوى من لواعج الحب وتباريح الغرام ويطلب

قائلها من الشخص الذي يوجهها له المساعدة في تحقيق الوصال مع الحبيب. هذه الإخوانيات لا تعدو أن تكون مداخل ومبررات للتعرف على الشاعر الآخر والتواصل معه. أما في مجتمع البادية الأكثر انفتاحا وتسامحا مع موضوع الحب وعلاقة الرجل بالمرأة فإن مثل هذه القصائد تعبر عادة عن حب حقيقي وطلب جاد للمساعدة بالجاه أو المال من أجل تحقيق الوصال بين المحبين. وقصة فزعة خلف ابن دعيجا لمحيسن الربشاني الرويلي قصة معروفة بلغت حدا من الشهرة أدخلها عالم الأساطير والروايات المتعددة. وترتبط بخلف قصص أخرى على هذا المنوال مثل فزعته لعيادة ابن رخيص الذي طلب منه أن يتوجه له عند عند الفرحان، أمراء جبه، ليزوجوه بنتهم التي أحبها. وآخر الحكايات المتداولة بين البدو في هذا الباب فزعة الشاعر معلث المقوعي للشاعر عيد ابن مفلح الخياري والتي رواها لي معلث نفسه بكل ما يتعلق بها من قصائد متبادلة بين الشاعرين. هذه سالفة خلف ابن دعيجا مع محيسن الربشاني كما استقيتها من رواة الشمال:

محيسن الربشاني من الروله عاشق له له بنت، وقَبِل العشق يذبح الولد. محيسن عاشق له رويليه والرويلية خْطبَه وعيّي بَه عليه. جمع الرولة جاهيّةٍ على ابو البنت ويعيّي بَه. ونذر نذر انت يابْوَه انه ما تاخذ محيسن الرويلي، نذر ثمانين وضحا انه ما يجوّز بنته لمحيسن. احتار محيسن، ضاقت حيلته، يبي البنت ولا يدري وين المزبن اللي يزبنه ويحصّل له البنت. قال: وش اعمل! قالوا: انت ما شكيت لخلف ابن دعيجا؟ ما تعقبه السالفة خلف، رجل يحل القالات. خلف ابن دعيجا من الدعاجين من الشرارات، خواله شمر، امّه هندا بنت محمد الحدب، طلع رجال كريم ورجال طيب ومِقدَم قبيله، رجال طالع له صيت وطالع له علم طيب.وهو يقوم لك محيسن وهو يزعج له هكالذلول، زْعَجَه لخلف يشكي عليه، انت يالرويلي:

ياراكب حمرا من النى تبني	ومرودمٍ غير الدفوف السنامِ
يا طال يومه بالعنا ترتكبن	جدعيةٍ تقطع قويّ العصام
يا درهمت لعظامها وارتكبن	خطرٍ عليها مع رفيف الحمام
ترعى زهر نوار برقٍ جذبني	مرباعها ما بين شرقٍ وشام
وعيونها جمر الغضا يلتهبن	والا سراج مروطنين الكلام
تلفي خلف بيته كما الحيد مبني	حيثه على الوزمات رجلٍ يحامي
لى ياخلف لا جاك همٍّ ركبني	ادعى رسيس الغور ينخل عظامي
غِش العراق الله يجيرك ضربني	دلّى يتساوق مع مفاصل عظامي
على حبيبٍ بالموده سلبني	سلبة عباةٍ بيدَيّ الحرامي
وجروح قلبي ياخلف ما قطَبْن	باقصى الضماير ياخلف مير كامي

يوم وصلت القصيده خلفات وصفّط هدومه الزينات وحطّهن بْبَدّ الشداد ولبس له هديمات مشرتحات وهو يركب ذلوله وقوطر ينشّد عن ابو البنت الى ما طب عليه. ويجيك ناحرٍ الرويلي، ابو البنت. طب عليه وعنده هكالليلة، ما يعرفه، الرويلي ما يعرف الشيخ ابن دعيجا. امرح عنده. جلس عنده له حروة عشرة ايام ضيف، لكن انه ضيفٍ خادم، ما يْخَلّي يقصر عليهم حاجه، يشيل معهم ويرعى البل ويحلب النياق ويروّي لهم الما، ويخدمهم باللي هم يحتاجون. قال له ابو

البنت: انت ياضيف الرحمَان وش انت؟ من اين جيت الله يحييك؟ قال: جيت من فرَع هالوادي. قال: وش تدور، انت دوار؟ قال: ادوّر الضمّات، والله ابي اصير راعي، لو القى احدٍ اضم عنده. قال له ابو البنت: والله ان علينا عازة راعي، كان تبي تصير عندنا راعي حياك الله، راع هالنياق كان هن يقضبنّك صر معهن. قال: مبروكات، اي بالله يقضبنن. قال: لك قعود عليهن. وصر معهن. أيام وليالي، يبي يحل القالة أغديه يحرج البنت، يبي يصير عنده راعي اغديه يحرج البنت. هذاك ما يعرفه. قال: وش اسمك؟ قال: سالم مبلي. غيّر اسمه. ضم عندهم وجميع من مرّه من هالطرقيه اللي رايحين لديرة محيسن يقول: سلموا لي على محيسن، تراي والله ما آجي الا هي بنحر هالذلول، لا يذبح نفسه بالهوى. وينهج خلف خَطْوات النوبه مع البنت وضيحا، البنت اسمه وضيحا، يروّح ويحطب معه لما جْسَرَت عليه وهو جسر عليه. قال: ياوضيحا انا السالفة ابعلّمك بالسالفه وانتي عاهدينن. قالت: عليك الله وامان الله ما يظهر سدّك لغيرك. قال: ومَنّا بالله، انا خلف ابن دعيجا. قالت: ياخي محيسن هو ميت والا حي؟ هي تدري ان محيسن ناحرٍ خلف يستفزعه على ابوَه. قال: والله الرجال مهايم ولا ادري هو حي والا ميت، مير انا والله ابيّن روحي واعرض روحي على ابوك وان ما عطان اياك ابيك ترادفينن على هالقعود وابنهبك واروح بك يمُّه. قالت: ياخَيّ والله لو ابنهج نهجت مع محيسن يوم هو يداورَن. هو سكت وهي سْكِتَت. محيسن كل صبح يروح لراس هالمرقاب ويقعد لما تغيب الشمس، لا ياكل ولا يشرب، ويرجع الى ادمس الليل. يوم صار اول سنه اوفى خلف من معزّبه على حوار. يوم صار ثاني سنه ويوفي على قعود. يقول يوم جا يوم من الايام كتّوا الروله مشرّقين جايّنٍ من سوريا وتمثنوا تلعة الأسيدّ هاللي شرق قراقر. يوم صاروا شرقي المابيّه، بين المحيضر والمابيه وهم ينزلون ويفوت فيصل ابن شعلان وينخاوه هكالولد على طلبة البنت وهو يركب مع هكالخياله معه يجون لهم خمسطعش عشرين ويجون يم ابو البنت يبون يطلبونها منه. والى هذا ابو البنت لاحق خلف على الفرس. يوم جاوه قال: وين البكرة الفلانية، انا خْطِرتن الروله هم هذولا عندي وابي البكرة الفلانيه. ما يعرفون الغنم، بس على هالنيب. يبي يذبح لهم. قال: ليه؟ قال: عندي الروله خْطِرونَن ابذبح لهم البكرة الفلانية نضيّفهم عليَه، نعشيهم. قال: اشوف لي لي بدونٍ زاحهن هالطياح يم هكالنوازي اغدينا نحصل ذبيحتنا منهن وتسلم بكرتنا. قال: ما هي فيدة وعول، ثلاثطعش شداد اللي مجعوفات قدام رفّة بيتي، ولا هي فيدة وعول، وش عاد لو ذبحت لك وعل. قال: بس انت تِقَفّ هالمقهور وقوطر يم ضيوفك قهوهم، حنا علينا نهار وممدينن بالبكره، انا ابهف يم هالوعول. الى مير ابن دعيجا باروده ما تخط بالارض، لا على قوم ولا على صيد. وهكاليوم الصيد متوفّر من اين ما جيت تلقاوه على كيف ما تريد. وهو ينهج يدفلج يابن دعيجا. يوم طلع على البدون يا هن هذولي، وست اللي هو يسدح منهن، يركّدهن، ما يضربَه الا بالراس، هو حالفٍ انه ما يرمي البدن غير بالراس. هكاليوم السلاح فتيل وكويتيّه. وهو يجيك مْشَبْقِنْهِن وشايلهن كل بْدنين على بعير.نشد حدى الرعيان قال: ما تدري اهلنا وين هم نْزَلَوا؟ قال: اووه، اهلك الليله مضيوفين، شفهم هاللي عندهم هالنارين، عندهم ضيوف طلابة بنت. قال: وشّي البنت؟ قال: بنت الربشاني.وهو يصيح للبل يقول وهي تجيك. يوم انه رغت الذلول، الرحول، جْعَرت، وهي تجيك البل متقصّفه. يوم صلوا الصفرة يا خلف عندهم. جا راكب ذلوله ويقود البعارين اللي عليهن البدون وهو يتعدى من عند الضو من قدام البيت ويشوفه فيصل ابن شعلان، يشوف روس البدون وهن على جنب البعير. قال: بالله عطونا لنا راس بدن من هالبدون

اللي صايدٍ راعيكم نبي نعد نشوف كم له من سنه. يعدّون كل فرض بالقرن عن سنه. جابوا اول راس والى مضراب الطلق بالراس. قال: انطونا الثاني والى مثل. حتى سادس سته والى مضراب الطلق بالراس. قال: وشّو هالراعي عندكم هذا؟ هذا ما يضرب البدن غير بالراس مثل مضاريب خلف ابن دعيجا! قالوا: لا والله هذا سالم مبلي، مير والله اللي كلينا من الصيد يسوى حلالنا كله. قال: نادوه، نادوه ابنشده وين صاد هالبدون. هذا قبل ما يطلبون البنت. خلف فك الهدوم اللي بالبدّ، اللي بالشداد، اللي هو شايل له سنتين وجدع هداريسه ولبس هدومه الزينات. انقضت الرعية هالحين، هالحين قضت رعايته هو، البنت الليلة جاية الرولة يخطبونه وهو جاي يوم يرعى يبي هالبنت، يبي يِحرْجَه لمحيسن. يوم نادوه ودخل عليهم والى هذا الشيخ خلف ابن دعيجا، هم يعرفونه. قمز فيصل ابن شعلان: حي الله خلف، حي الله خلف. قال: الله يحييك. وتسالموا هو وايّاوه وتحابّوا. كيف انت ياخلف، كيف انت ياخلف، والله انك بهذا ياخلف. المعزب بحّر واجلد، بس وقف، تهوّل من هاللي يحيّون به وقعّدوه على المركى، صِبي البل. قال: من هو هذا يالروله؟ قالوا: هذا الشيخ ابن دعيجا. قال: عوذا، الشيخ ابن دعيجا! قالوا: هذا الشيخ ابن دعيجا. قال: ياخوي انا هذا لي ايام وليالي وانا آمر عليه واسرّحه بالبل. قالوا: والله من ردا بْخَتَك اللي تامر على خلف ابن دعيجا، هذا الشيخ خلف ابن دعيجا تامر عليه! من والله ردا بختك. يقول يا مير يتدرّون الاولين، يتمدرون، الحظيظ والرجل الخيّر ما يومر عليه، ابد. يقول وهو يقضب هكالناقه وهو يذب عراقيبه. قال: هذي ذبيحتك ياخلف ابن دعيجا، واخلّقْني البين، كيف ترعى حلالي وانت عظم عرب، شيخ عرب. وهو يتعقّبُه وهو يحب راسه. قال: انا طالبك انك تسمح لي يابن دعيجا. قال: هذي ما هي مبيّضةٍ قراطيسك، ابدا، ما اسمح لك. قال: طلبتك انك تسمح لي. قال: ما اسمح لك الا بما خدمت بُه لَك. قال: عليك الله وامان الله انه ما خدمت بُه انه جاك. قال: انا جايٍّك طلاب لفلانه. قال: ابشر به. قال فيصل ابن شعلان: حق الله انك موفي عليه سنتين وحنا نبي ناخذه الليله، لا بالله كلنا طلابٍ معك. قال: تراها جتك، الله وامان الله عن مْهَنتَك روحك تراها جتك. قال: تراكم شهود، تراها لمحيسن الربشاني. قال: لعن ابوك انا معيٍّ به على محيسن، محيسن ناذر ثمانين نذر انها ما تدخل ذمته. قال: انا اجيب لك مية ناقه واذبح نذورك، حلال الشرارات واجد. قال: ياخوي انا ناذر نذر، انا ناذر نذر لاذبح ثمانين ناقة ان اخذت محيسن الرويلي ومعيٍّ به عليه. قال: عاد انت انطيتن الله والله ابخص بك، شف نياقي تسعين ناقة ذبّحهن واوف نذرك وعطن البنت ابيه لمحيسن. قال: لا والله يحول الله عليك انت ونياقك، الحمل على دبش الرولة، كان هو باثر امرتي عليك اباخذ بعد نياقك، لا بالله جتك البنت، اشهدوا يالروله انه جته البنت. ويعقد له بالنيابة عن محيسن واركبه معه. يوم صار الصبح قال: يابنت ياالله شيلي على جْمِلك. وهو يشيّل الجمل ويركبها عليه وياخذ ولد اختها معها ويجيبها. يوم اقبل على محيسن الربشاني والى مير محيسن الربشاني توّهم دافنينه قدام جيّته، يوم هو يقول: محيسن على حياض المنايا عقبني. قال: يابنت نوّخي هالجمل وقّفي بين هالنصايب وسلّمي على محيسن وهذا عذري منّه. حوّلت: قوّك يامحيسن، كيف انت يامحيسن. قال بناخيَّها: ياخلف، هذي ابوها عطاك ايّاها ومحيسن عاد الله حسد عليه ومات، ولكن خذها انت. قال: والله ما يسولفون به اني رايحٍ علشان نفسي، انا رحت علشان هالنخوه ويوم الله قطع منه ترجع لاهلها. يقولون حمّل جملها واعطاها من المير اللي موجود ببيته وخلاها ترجع لاهلها. ويتمثل خلف ابن دعيجا يقول:

امـثـال من صـدر الفـهـيم انهـذبنِ ... لولو ومـرجـانٍ مـلاوي كـلامي
عـلام مـحـيـسن جـوف ربعي نجـبني ... ياجـايبين العلم دمـتم ودامي
راكب اللي بالبلد مـا جْلِبْنِ ... ولا حافـهن راعى السحاحير شامي
مـا لاخـسن من جـملة الحـشـو لابن ... ولا لسّـهـا مـفـرودها بالفطام
ضـراب هرش بالهـدد له يجبن ... يطلَق عليـهن يوم كل ينام
مـرباعـهن فـيـحـان هم اقـتلبن ... يرعن زهر نوار عـشب الوسـام
تلفي على اللي جـوف ربعي نجـبني ... يامـوصّلين العلم دمـتم ودامي
علمٍ يشـد الروح وانا كـربني ... كـرب الرشـا من فـوق هدف المقـام
كم واحـد سـدر بديه وعـزبن ... واضـحت دْلِيّـه عـقب الاومـا مظامي
البـيض جـعل البـيض مـا يرتجبن ... عـشـيـرهن ترمى عليـه التـهـام
البـيض قـبلك بيـقليـبي لعبن ... وردن وخـلـنـه بـروس المـظـامـي
والبـيض قـبلك ليـقليـبي سلبن ... واخلفن عـقلي عن مـلاوي كـلامي
كم واحـدٍ مـدّن بقلبـه عـزبن ... وعـقب الروى تاتي دْلِيّـه مظامي
ان كـان ذودي للحـبـيّب يجبن ... دونك عـصـاهن قـد لهن بالتـمـام
دونك قـعـود البـيت والبـيت وابني ... تر طلبـة العـقـلا علينا حـرام
تر جلهن تسـعين من غـيـر لبن ... غـيـر الجـمـال مـروبعـات الهـوامي
مع بندقٍ لفظات فـمـهـا يصبن ... لهـا على خطو المجنّح مـرام
يصلّني بالبـيـر من لا جـذبني ... صل الرشـا من فـوق هدف المقـام
مـحـيسن على حـياض المنايا عـقـبني ... وحـثـرب على الجـمـه قليل الرحـام

وهناك من شعراء الحاضرة من كرس معظم إنتاجه الشعري للتعبير عن الحنين إلى حياة البدو ورسم صور ومشاهد من طبيعة الصحراء الجميلة. ولقد طور هؤلاء الشعراء موضوع ارتحال الحبيبة مع قبيلتها من إشارة عابرة أو موضوع ثانوي يأتي في مقدمة القصيدة إلى موضوع رئيسي مستقل يستأثر بالقصيدة كلها. ومن خلال ذلك رسم الشعراء الدورة السنوية لتجوال القبيلة، بمختلف محطاتها الزمانية والمكانية، وكثفوها على شكل حصيلة شعرية متوارثة من الصور والمشاهد المنسوجة مع الغزل والأطلال لتشكل موضوعا مستقلا من مواضيع الشعر النبطي. ويشكل هؤلاء مدرسة شعرية متميزة اقترح البعض لها مسمى المدرسة الوجدانية. تنضح قصائد شعراء هذه المدرسة بنوستالجيا الصحراء والحنين إلى البادية. تبلورت هذه المدرسة وتحددت معالمها الفنية على يد الشاعر المبدع عبدالله ابن سبيل ومعظم شعرائها من عالية نجد وأشهرهم مطوع نفي وفهيد ابن عويويد المجماج ومن المتأخرين سويلم العلي.

الشاعر عبدالله ابن حمود ابن سبيل من حمولة آل سبيّل الذين لهم إمارة حاضرة نفي في عالية نجد. توفي سنة ١٣٥٢هـ عن عمر يناهز الثمانين. وكانت بادية عتيبة، التي اشتهرت بشجاعة رجالها وجمال نسائها، يمضون الصيف قاطنين

بالقرب من نفي. وبحكم مركز ابن سبيل ومكانته فقد نشأت بينه وبين شعراء البادية وفرسانها وشيوخها مثل ابن ربيعان والهيضل والضيط ألفة ومودة حيث كان يمضي معظم أيام المقاطين في بيوتهم ومرابعهم يتمتع بكرم ضيافتهم ويحتسي معهم القهوة ويستمتع بسماع سوالفهم وعلومهم التي غالبا ما تدور حول المغازي والغارات وما يحدث فيها من حوادث مثيرة ومواقف بطولية. وكان يستخلص من هذه القصص صورا لحياة البادية يرسمها في أشعاره عن حلهم وترحالهم ومغازيهم وحروبهم وعاداتهم. لقد تأثر ابن سبيل بمخالطته للبدو حتى أصبح شعره "ديوان لأحوال البادية جمع فأوعى من أوصاف أحوال البدو في السلم والحرب والعادات والحل والترحال"، كما يقول خالد الفرج، الذي كان أول من حقق شعره وشرحه شرحا جيدا ونشره في مجموعه **ديوان النبط** الذي ظهر في أول طبعة له عام ١٩٥٢، كما يقول الفرج عن ابن سبيل أنه "وإن كان حضري الإقامة فهو بدوي الهوى والنزعة لكثرة مخالطته البدو ولأن نفي أحد المياه التي يقيظون عليها" (فرج ١٩٥٢/١: ١٩٤-٥). ولقد كفانا الفرج شرح شعر ابن سبيل، لذا فلن نتوسع في التعليقات على القصائد التي نوردها له أدناه.

كانت لابن سبيل مساجلات ومراسلات شعرية مع أشهر فرسان وقته مثل فيحان ابن زريبان من مطير وذعار ابن ربيعان من عتيبه. وهذه قصيدة يسندها إلى صديقه ذعار ابن ربيعان يفتتحها بوصف الخواء الروحي الذي يشعر به بعد رحيل البدو عن نفي، ويشبه ظمأه الروحي بشعيب توالت عليه سنوات الجدب "**تقافت محوله**" حتى أصبح صعيده أشهب أغبر "**مِسْنٍ جنابه**" ويبست فيه ثمار الحنظل، مضرب المثل في قدرتها على تحمل الجفاف. ومثلما يربّع الشعيب بنزول المطر فإن قلب ابن سبيل يربّع بعودة البدو حينما يبنون بيوتهم وحللهم ويقطنون بالقرب من نفي. يتطلع ابن سبيل إلى موسم الصيف والمقاطين حينما تتوافد على قرية نفي جماعات البدو من كل صقع ومن كل قبيل؛ البعض يعرض بضاعته، والبعض تعجبك هيئته وسنحته، كل يلهج بلهجته ويتبختر بزيه المتميز. الرجال شاكي السلاح والنساء تزين معاصمها الحلي ونقوش الوشم والحناء والجميع يتبخترون في سوق القرية. مشاهد تنبض بالحياة وتعج بالحركة والألوان وتضيف شيئا من الإثارة على حياة القرية الرتيبة. ولكن ما الفائدة "**وش خانه**"؟! فلسرعان ما يأتي موسم الربيع ويبدأ عيون القبيلة "**العسوس**"، الذين أرسلهم الشيخ ليبحثوا عن الماء والعشب، بالتوافد وتبدأ القبيلة تتجهز للرحيل إلى حيث يقودهم شيخهم الذي يتخذ قراره بناء على المعلومات التي تلقاها من السبور. وإذا ما وصلوا إلى المكان الذي ينوون النزول فيه انشغل النساء ببناء البيوت بينما يتوافد رجال القبيلة على بيت شيخ القبيلة الذي يميزه عن بقية البيوت حجمه الكبير وموقعه البارز. وفي آخر النهار يجتمع رجال القبيلة في بيت

الشيخ لشرب القهوة والدخان "الحشايش" وسماع الأخبار والتشاور في أمور القبيلة. منزلهم هذا في روضة خضراء فسيحة على جانب غدير من الماء. والخيول عند البيوت تتلفت لمن يدعوها. ويستطرد في وصفه لبرهم بخيلهم التي لا يبخلون عليها بالقوت لأنهم يدّخرونها للمهمات الصعبة، إذا تأزمت الأمور وانقلب الصديق عدوا "**ليا ما وقّف العلم طوله**". ومن وصف الخيول يلج إلى وصف استعداداتهم للحروب التي تدور فيما بينهم ويخوضونها على خيولهم في غارات خاطفة كانوا يشنونها لنهب إبل القبائل الأخرى. وبعد استيلائهم على الأذواد انهزموا بها وتمكنوا من صد أهلها والفوز بها. وفي الأبيات الأخيرة يشيد بشجاعة عتيبة وهيبتهم في نفوس الآخرين ويختتم القصيدة ببيت يمتدح فيه شيخهم ابن ربيعان الذي يصفه بقوة العزيمة والدهاء:

ياذعار انا قلبي من العام حوله ... لليوم ينقص ما بقى الا قليله
مثل الشعيب اللي تقافت محوله ... مسنٍ جنابه يابسٍ حنظليله
ربيع قلبي جية البدو حوله ... وتقيرب المقطان واحبني له
والسوق يعجبني الى شفت ظوله ... مثل النظيم المختلف عن مثيله
ذولا لهم حاجه وذولا بدوا له ... يلهون راعى الوارده عن قبيله
وش خانة المقطان في كل جوله ... حز الربيع الى تزايد نزيله
ربيعهم قول العسوس ارحلوا له ... عشبٍ جديد ولا بعد جفّ سيله
والصبح سمحين الوجيه حْقَلوا له ... وعطّ السلف واستجنبوا كل اصيله
وكلٍّ لاهل بيته ينوّخ ذلوله ... ونوّخ خفيف الزمل واقبل ثقيله
والبيت يبنى فارقه كبر زوله ... لا بدّ شرّاب الحشايش يجي له
في روضة صكّت عليها نزوله ... والنقع قِدْم البيت ما ينعني له
تلوة نهار وكلّهم سيّروا له ... والخيل من تاعى لها ترعوي له
ما قيل ياراع الحصان اقهروا له ... باطرته النعمه مديمٍ صهيله
باغٍ ليا ما وقّف العلم طوله ... وتنافضت بين العميل وعميله[1]
نيّه على اطراف العرب واجمعوا له ... نمرا تصهرج مثل نوّ الرفيله
والسبر راح وردّها في حلوله ... ودَرْهم عليه الشيخ واشتال شيله
وشافوا عياله يوم هم قرّبوا له ... صفرا تكف الخيل عن كل عيله
قالوا مطالع قال الاخر يقوله ... وتعايلت قِدّام يومي شليله[2]
وفاضوا على طرشٍ وْساع خلوله ... من دنّة الغاره تزايد جفيله
حوّوا وردّوا باوله وقْهَروا له ... ما عنده الا من يَحَلب بصميله
يوم اوسَعَوا لحق الطلب ورْجحوا له ... كل ابلجٍ ياخذ عليهم دبيله
كم مايقٍ برْماحهم سبّقوا له ... مِطْغِيْتِه الدنيا يَحَسْبه طويله

---

(١) لم يوفق الفرج في شرح هذا البيت والذي يشير إلى تأزم الأمور وانتقاض الهدنة بين الطرفين "**العميل وعميله**".

(٢) كذلك لم يوفق الفرج في شرح هذا البيت والذي يشير إلى محاولة "المِدّب" كف الخيل المغيرة عن الهجوم حتى يأذن لهم عقيدهم بذلك فيهجموا هجمة واحدة قوية تسبب الصدمة للعدو المقابل.

هوّد وعـــوّد كـــاثراتٍ عـــذوله كلٍّ بقلبـــــه واهجٍ من غليله
يمشـون مـشي اللي ثْقالٍ حْـمـوله زمْلٍ من الوزمـــــه رخِيٍّ مكيله
يتلون شـيخٍ مـاضـيـات فـعـوله يسـري وغب سْـراه مـا يندري له

يعبر شعر ابن سبيل عن افتنانه بحياة البادية ومعظمه رصد إثنوغرافي لأحوال البدو المعيشية. في نهاية الصيف يرحل البدو عن نفي إلى جوف الصحراء ويتركون ابن سبيل وراءهم، كطير قص جناحه، يتوجد عليهم ويبكي فراقهم ويتشوق إلى عودتهم في الصيف المقبل. ومن أشهر قصائده في هذا الموضوع قصيدته التالية التي يفتتحها بالدعاء بعدم السقيا على الأيام الأخيرة من أيام المقاطين "ليال الشفاشيف" التي ينشغل فيها البدو بمحاولة استخلاص مستحقاتهم من التجار الذين اشتروا منهم سمنهم وإنهاء جميع متعلقاتهم قبل مغادرة القرية والعودة إلى الصحراء. في هذه الأيام تتشتت القبيلة ويتفرق الأحباب ويذهب كل فريق في طريق مستقل بحثا عن المراعي لإبلهم، يغذون السير ولا يبنون بيوتهم لكثرة تنقلهم وسرعة حركتهم رغبة في الوصول إلى المراعي الجيدة واحتلالها قبل غيرهم. وفي البيت السادس يطلب الشاعر السقيا للأيام الأولى من موسم الصيف والتي يطلق عليها نقضة الجزو، وتعني أن الإبل لم تعد قادرة على الاجتزاء بما في العشب من رطوبة عن شرب الماء ولا الرعاة قادرون على الاجتزاء عن الماء بما في سعونهم من حليب النوق. في هذه الأيام تختفي السحب وتجف الأرض وتهب رياح الهيف الحارة التي تيبس العشب. والمعنى الذي طرقه ابن سبيل في البيتين السادس والسابع شبيه بقول ذي الرمة:

حـتى إذا مـعـمـعـان الصـيف هب له بـأجّـــةٍ نش عنـهـــا الماء والرطب
وصـــوّح البـــقل نسّـــاج تجيء به هيف يمانيـــة في ســـيـــرها نكب

عند حلول الصيف لا مناص للبدو من العودة إلى المقاطين فترى قطعان الإبل قادمة نحو قرية نفي تدك المشارف والمرتفعات لكثرتها وتصطف بيوتهم كأنها سلسلة من القفاف والآكام السود حول آبارهم التي يتخلى لهم عنها رعاة الغنم. ثم يصف ما يحدث بين البدو والحضر من زيارات ودية وتبادلات تجارية خلال فترة المقاطين التي تستمر تسعين ليلة. وفي آخر الصيف حينما يظهر سهيل قبل الصبح يبدأ موسم الأمطار ويستعد البدو للرحيل بعد صرام النخل مباشرة وبعد تزودهم بما يكفيهم من التمر بقية عامهم. في الصباح الباكر ينشغل الرجال بسقيا الإبل وينشغل النساء بتقويض البيوت التي يحملونها على زملهم ويرحلون قاصدين المواقع التي ذكر لهم عيونهم وروادهم أنه يكثر فيها العشب والماء. ومع حلول موسم الأمطار تبدأ الغارات والغزوات التي يستطرد ابن سبيل في وصفها في الأبيات الأخيرة. وتنتهي القصيدة بوقفة طللية مختصرة جدا لا تزيد عن بيت واحد يشير إلى ما آلت إليه منازلهم التي بعدما كانت عامرة بهم تحولت إلى قفار موحشة تتعاوى فيها الذئاب:

الله لا يزّي ليـــال الشـــفـــاشـــيف ... أيّام راعى الســـــمن يخلص ديونه
فـــرّاق شـــمل اهل القلوب المواليف ... كلٍّ على فـــالـه يبـــاري ظعـــونه
والى نْشِـد عن واحـدٍ قـيل مـا شـيف ... أزروا هل القـــعـــدان لا يذكـــرونه
الشـــيخ كنّه صـــايلٍ يتـــبع الريف ... ياخـذ سْـبـوع البـيت مـا يبـتنونه
يتلون مـشـهـاة البكار المشـاعـيف ... كلٍّ يبي قـفـره قِـدِم يسـهـجـونه
سقوى الى جت نقضة الجزو بالصيف ... وابعـد ثرى نقْـعـه وكنّت مـزونه
والعـشب تلوي به شْـعـوفٍ من الهـيف ... والشـاوي اخلف شـربتـه من سّـعـونه
وجـتـنا جـرايرهم تدق المشـاريف ... البـيت يبنى والظعن يقـهـرونه
تقـاطروا مـثل الحـرار المقـاييف ... وراعى الغنم عن مـرحـهم يفـهـقـونه
وتواردوا عـدٍّ قـراحٍ قـراقـيف ... العـد لو هو بالفـضـا يشـحنونه
وكلٍّ نصـا القـريه يدور التـصـاريف ... واللي له احـبـابٍ لبـابٍ يجـونه
وتسـعين ليله جـانب العـد مـا عـيف ... ولا للشـديد مطرّبٍ يسـمِـعـونه
وهبّت ذعـاذيع الوسـوم المهـاريف ... وسْـهـيل يبـدي مـا بدا الصـبح دونه
وجـاهم من القـبله ركـيبٍ مـواجـيف ... وحْـضـور يوم ان النخل يصـرمـونه
والعـصـر بالمجلس مـضـال وتواقـيف ... وامـسـوا وتالي رايهم يقطعـونه
الصـبح طوّن البـيـوت الغطاريف ... والمال قِـدْم اطلاقـتـه يصـبـحـونه
راحـوا مع الريدا وسـاع الاطاريف ... يذكـر لهم مندىً شـبـيعٍ يبـونه
ولهم على حل المواسم مـحـاريف ... والى جـذبهم قـايدٍ يتـبـعـونه
والى تَعَلّوا فـوق مـثل الخـواطيف ... كم مـايقٍ بارمـاحـهم يزعـجـونه
هذي مـغـاوير وهذي مناكـيف ... وهذا يبـيـعـونه وذا ياسـمـونه
أويّ جـيـرانٍ عليـهم تحـاسـيف ... لولا انهم قلب الخطا يشـعـفـونه
الى تِقَـضّـوا مـا عليـهم تحـاسـيف ... من اين مـا طاح الحـيـا يتـبـعـونه
مـقطانهم خِلّي بليّـا تواصـيف ... قَـفْـرٍ عليـه الذيب يرفع لحـونه

وفي القصيدة التالية يشبه حيرته وارتباكه بعد أن شاهد البدو وهم يرتحلون بحيرة إنسان عديم التجربة ضاع في مفازة لا يوجد فيها الماء. ويصف ما يحدثه رحيلهم من ضجة وضوضاء وحركة، فهذا ينيخ إبله وهذا يثيرها وهذا منشغل بتحميلها. ولكثرة الجلبة والأصوات المختلطة لا تكاد تسمع المنادي لو صاح بأعلى صوته. والبيت الرابع من القصيدة يشبه قول علقمة بن عبدة التميمي:

رد الإمـاء جـمـال الحي فـاحـتـملوا ... فكلهـا بالتـزيديات مـعكوم

وقول قيس بن الحدادية:

أدنى الإمـاء جـمـالات قـراسـيـة ... كـوم الذرى مـوّر الأعـضـاد أفناقـا

والأبيات الأولى من القصيدة تذكرنا عموما بقول الشاعر العربي:

أجـمـعـوا أمـرهم بليلٍ فلمـا ... أصـبـحـوا أصـبـحت لهم ضـوضـاء
من منـادٍ ومن مـجـيـبٍ ومن ... تصـهـال خـيلٍ خـلال ذاك رغـاء

ارتحل البدو عن قطينهم وتركوا آباره خالية "خْلِيٍّ ركاياه" تعوي حولها السباع

وتسفو عليها الرياح. ثم وردوا على عد ماء بنوا حللهم بالقرب منه في انتظار توافد الباقين منهم لينتجعوا المراعي التي سقط فيها الغيث. ويقول في ثلاثة الأبيات الأخيرة إن قلبه يزهر ويخضر إذا جاء البدو، وأنه ينصرف إليهم وينشغل بهم عن دكانه وبضاعته ومسائل البيع والشراء. وكان لابن سبيل دكان يبيع فيه ما تحتاجه البدويات ليجذبهن إليه للشراء منه، ولم يكن قصده الربح من جراء هذه التجارة بقدر ما كان حريصا على مجاذبة البدويات أطراف الحديث العذري البريء لما اشتهرت به نساء البادية من عذوبة الحديث ورقته والانفتاح الملحوظ في تخاطبهن مع الرجال، مقارنة بنساء الحضر والفلاحين:

وش خانة المقطان لو قيل ما احلاه ... صيّور ما جا بالليالي غدت به
يامل قلبٍ من شديد العرب باه ... بوهة غريرٍ بالمظامي رِمت به
لا والله الا صار للبدو نوناه ... وثوّر عسام الجو مما عْفِت بِه
والبيت هدّن الخدم زين مبناه ... طوّن ذراه وقينة الزمل جَت بِه
وشالوا على اللي بالمبارك مْثَنّاه ... ما حِطّ فوق ظْهورها زوّعت به
مظهورهم كن الطمامِيع تشعاه ... يتلي سلف خيّال من قرّبت به
ياقرب مسراحه ويابعد ممساه ... تمسي محوّشة الغنم تشتمت به
لو صوّت الرجّال ما تسمع نْداه ... من لجّة المرحول ما يلتفَت به
مقطانهم خِلّي خْلِيٍّ ركاياه ... تقنب سباعه والذواري بنت به
وردوا على عد حْلَلْهم بمنداه ... لين ان كلٍّ من مديده لِفَت به
يوم استخالوا نوض برقٍ بمنشاه ... يذكر لهم من راح سيله بنتبه
ياعيني اللي في نظرها مشقّاه ... تاصل الى مشرافهم واشرفت به
العين سبر القلب والرجل مغراه ... والى ومر قلبي لدربٍ مِشت به
رجلي على كثر التراديد مشهاه ... مامورةٍ والا انها مستعتبه
قلبي ربيعه جية البدو ومناه ... ولا حسّب البيعات وش صرّفت به
العصر يوم ان القصر مالت افياه ... في سوقنا الثوب الحمر وقّفت به
يجر ثوب البز واعظم بلواه ... لو كان قلبي ممحلٍ ربّعت به

ويختتم القصيدة بغزل خافت. إلا أن هذا الغزل يعلو صوته في القصيدة التالية التي يفتتحها بوصف ظعائن الحبيبة المرتحلة. ويراقب قطعان الإبل التي اختفت أوائلها خلف قنن الجبال بينما لا تزال البقية في مرمى النظر تغطي المرتفعات "الشفا" وتنتشر فوقها كما تنتشر الغيوم في السماء. وفجأة تنتقل به الذكريات إلى الماضي القريب حينما كان البدو نازلين بالقرب من نفي وكانت بناتهم يترددن إلى سوق القرية ويمشين بخطى بطيئة متثاقلة تشبه خطى الطفل الصغير أو الإمام الذي يقيس الظل بخطاه ليعرف ما إذا كان قد حان وقت صلاة العصر، وهذا من التشبيهات البارعة التي اشتهر بها ابن سبيل. ويسهب في وصف محاسن أولئك الفتيات البدويات وينبه إلى أن سلطان الحب قهر الفرسان والأمراء والشيوخ. ونستنتج من

الأبيات الأخيرة أن شيوخ البدو الأقوياء كانوا يفرضون إتاوات "معاليم" على أهل القرى:

يامل قلبٍ طار عنه اليقينِ ... من يوم قفّن الظعاين زهازيم
هفّن اوايلهن مع القنّتينِ ... واتلاهن اللي بالشفا كنّه الغيم
وذكرت منزلهم علينا قطين ... أيام عندي بين شدّاد ومْقيم
وجيّة بنات البدو تساريتين ... وتواجبن ما بين ردّه وتسليم
إلى مِشَن كنه تِخطّى الجنين ... والا المطوّع يقدِم العصر تقديم
عشر الخْطا يمشن بها ساعتين ... كن المِسيْر خْلاف لولا التعازيم
وبْهِنْ لطلاب الهوى شارتين ... السلهمه وظْهارِهن المقاديم
والبخنق اللي تفصله طرقتين ... دون الشفايا والثمان المناظيم
تشعف قْلوب اهل الحيا الحاضرين ... ومعهن سهوم تصرّم القلب تصريم
وآخر مزرّ جْيوبهن فرقتين ... عن مثل درّ مْعطّفات المرازيم
معهن لمثلي حيرة ما تبين ... ولا من مفرّ عْن القدر والمقاسيم
ما اقول شيٍّ ما نظرته بعيني ... الى اقبلن ما عن لقاهن مهازيم
الحب بيّح كل قلبٍ فطينِ ... كم واحد قبلي تبيّح ولا ليم
خلا الشيوخ يبيّحون الكنين ... تبايعوا لشْراه شقح ومجاهيم
اللي مواقفهم على الاولين ... ولهم على حضر القرايا معاليم

ومن أبرز أصحاب المدرسة الوجدانية بعد ابن سبيل قريبه فهيد ابن عويويد المجماج الذي عاصره وكان يسكن الأثلة قرب نفي. وقد حازت قصيدته التالية على إعجاب متذوقي الشعر النبطي واستطاع فيها أن يمزج بين الغزل وارتحال القبيلة بشكل ربما فاق فيه ابن سبيل.

لا والله الا شدّوا البدو نجّاع ... كل هدم مبناه وارتدّ زمله
شدّوا ودنّوا للحني كل مطواع ... كل اشقحٍ زين زفيفه ورمله
طوّوا وروّوا وانتووا عقب مجماع ... وراع المودّه فرّق البين شمله
غادٍ لهم فوق الرفايع تِزِلْواع ... واللي نوى دربٍ عزل وانقسم له
اقفوا كما نوٍّ نثر ماه وانزاع ... برقه يرفرف والسدى يرتدم له
وابكرتاه اللي غدت بين الاقطاع ... ياكود دورتها على اللي جهم له
ما ادري مع اللي يم دخنه بالاسناع ... والا مع اللي سنّدوا مستهمله
ما هيب لا حاشي ولا هيب مرجاع ... عفرا فتاة وراعيه ما وسم له
راعي هدب عينٍ مظاليل ووساع ... سودٍ هدبها والمحاجير جمله
ابو قرونٍ فوق متنه يجي باع ... شقرٍ على بيض العواتق يَعَمْلَه
ياعود موزٍ ليّنٍ له تمرياع ... ومْنين ما هب الهوا مال حمله
عليه قلبي بين الاضلاع ينصاع ... كما يصوع الصيد رامٍ خطم له
أعوي عوى ذيبٍ ورا البدو نجّاع ... يقنب ياكود الله يجيب اللحم له

حِـبّـه يخج القلب مـا يوجع اوجـاع لا شك قلبي مـودعـه بيت نمله[1]

وله أيضا هذه القصيدة التي تمتاز بجمال القافية ورقة الغزل. ويشبه قلبه في البيت الأخير بالشجيرة التي كلما أوشكت أن تبرعم "تبرض" وتعود إليها الحياة حان رحيل البدو وفراق الأحبة فتجف عروق القلب وتذبل أوراقه:

يامن لقلبٍ من شـديد العـرب جـاض كـمـا يجـوض الى اونس الكي ممروض
لا والله الا صـار للبـدو نضناض دونك حجير مغيزل العين مقضوض
يامن يبشّرني عسى شيخهم راض وين انت ياللي لك مع البدو ملحوظ
طوّوا وروّوا وانتوا عقب مقياظ ولا نيب راجيهم الى جرّة الحوض
يوم استقلّوا والمظاهير قفّاض غدى لهم دون المشاريف عاروض
يبون برّاقٍ على دارهم ناض مختلطة به عشبة الصيف وحموض[2]
شقّوا وهفّوا واتّقوا عقب الاعراض وامسيت حالي من هوى زيد مقروض
وامسيت كني هاويٍ حبس الارفاض وصبرت يوم انه مقاسيم وحظوظ
والدمع من عيني على محجري فاض فيضة شعيبٍ فايضٍ له على روض
إلى استعز القلب واعنز بالابراض تعرّضه من طاري البدو عاروض

ومن شعراء المدرسة الوجدانية الذين وظفوا ثنائية البادية والحاضرة توظيفا بارعا سويلم العلي، خصوصا في قصيدته ياخوي طاب الكيف له والتعاليل، وهي قصيدة جميلة تستحق منا وقفة تأمل. يبدأ سويلم قصيدته بالحديث عن مأساته الشخصية إلا أن القصيدة تؤول إلى استعراض تمثيلي يحكي مأساة الإنسان والحياة في صحراء الجزيرة العربية بشكل عام، يحكي صراع الإنسان مع أخيه الإنسان ومع قوى الطبيعة القاهرة التي لا يملك معها حولا ولا قوة. ولكي يعطي هذه النظرة صفة الشمولية يعمد سويلم إلى انتقاء مشهدين من حياة البادية والحاضرة.

يفتتح سويلم قصيدته في البيتين الأولين بتوجيه الخطاب إلى أخيه يبثه الشكوى ويقابل بين حالة الشقاء التي هو فيها وبين الحالة المضادة، حالة السعادة، التي ينعم بها أخوه. فالأخ في منتهى السعادة والسرور لأن محبوبته قريبة منه تصلها المراسيل والعيون "الشبوح"، أما محبوبة سويلم فقد ارتحلت إلى بلاد نائية وانقطعت أخبارها. بعد هذين البيتين ينتقل سويلم إلى موضوع آخر من المواضيع المتوارثة في الشعر العربي، ألا وهو بَيْن الحبيبة وارتحال عشيرتها. إلا أن سويلم يرسم لنا في قصيدته منظراً حياً فنحس من قراءتنا لأبياته أننا نرى القوم منشغلين في تهيئة جمالهم للرحيل يركضون هنا وهناك ونشاهد أردانهم ترفرف من سرعة جريهم. ولكي يكثف

---

(١) **الحني**: الهوادج. **مطواع**: جمل مذلل. **تزلواع**: اختلاط واضطراب. **انزاع**: انزاح وانقشع. **السدى**: السحاب. **ياكود**: ما أصعب. **جهم**: انطلق مبكرا. **مستهمله**: لا يقصدون جهة معينة. **يصوع**: يطرد. **يخج**: يخترق وينفذ ويتغلغل.

(٢) **جاض**: ضج بالبكاء والشكوى. **نضناض**: جلبة. **راض**: تأخر وأبطأ في الرحيل. **ملحوظ**: معرفة وخبرة. **إلى جرة الحوض**: حتى وقت استخراج البدو أحواض الجلد التي يستخدمونها لسقيا الإبل في فصل الصيف. **حموض**: حمض.

الصورة ويبين قسماتها يعمد إلى تقسيم الظاعنين إلى قسمين، قسم لا يزال يجمع متاعه ويحمله وقسم آخر استقل وبدأ المسيرة. ثم تبدأ الرحلة الجماعية وتسير الجمال سيراً حثيثاً "زعاجيل" ويتركون الشاعر خلفهم وحيداً كاسف البال يرقبهم عن بعد وقد اعتلوا النجاد "شَفَوا" ثم انحدروا في الوهاد "هَفَوا" واختفوا وراء الحزون. وتبدأ مصيبة سويلم حينما يصبح رحيل المحبوبة أمراً واقعاً ويستقر في ذهنه أنه ليس هناك وسائل ولا سبل "سلوم" للوصال واللقاء. ويصف تخلفه عن محبوبته وعشيرتها ويقارن وحشته بالناقة التي شذت عن الإبل الواردة فضاعت في متاهات الصحراء وظلمة الليل، فهي إن لم تفترسها السباع فسوف تموت عطشا، وأمست تهجل، أي تسير مسرعة على غير هدى؛ كل هذه صور منتزعة من حياة الصحراء مما يؤكد تغلغل مكونات هذه الحياة في اللاوعي كما يعكس ذلك الموروث الشعري.

ويوجه سويلم اللعنة في البيتين التاليين على من يلومه. بعد ذلك يصور لنا وجده بعد رحيل المحبوبة ويسوق في قصيدته مشهدين استطراديين متقابلين ينتهي كل منهما نهاية مأساوية تمثل مأساة الشاعر بعد فراق الحبيبة. المشهد الأول مستمد من حياة البادية حيث يصور فيه الشاعر فارساً من فرسان البادية المغاوير شاكي السلاح ممتطياً صهوة جواده يرعى إبله في الفلاة. هذه العيس الثمينة فيها العشاير وفيها الخلفات وفيها الحيل، بعضها حيرانها صغيرة "ثلاد" وبعضها حيرانها قاربت سن الفطام "مخاليل". وصاحب الأبل فارس مغوار معتد بنفسه لا يخشى الموت ولا يأبه به، فهو يرعى إبله في أطيب المراعي التي أصابها مطر الوسمي "تدوس الوسوم"، وهذا دليل على شجاعته وعدم اكتراثه بالخطر لأن المراعي الطيبة لا يستطيع الوصول إليها إلا الرجال الأشداء لشدة تنافس القبائل عليها.

وتبدأ حركة الأحداث بظهور ركب من الغزاة سبروا الإبل وعقدوا العزم على نهبها. ركائب هؤلاء الغزاة صلبة ومدربة على الغزو وقطع الفيافي تركت الرحال والنسوع آثارها على ظهورها فانقلب شعر المتن أبيض "شيب المتون". وكل واحد من الغزاة الطامعين في الإبل أبلج الوجه، دلالة النبل وكرم المحتد، متعود "ضاري" على القيام بالأعمال البطولية "كسب التنافيل" التي تنفله، أي تميزه، على غيره من الرجال وتجعله أرفع منهم مقاماً. هؤلاء الغزاة متعطشون لنهب الإبل "ضَرْما"، ولا يلامون على ذلك "ما فيه لومِ" فهذه ممارسات وأعراف تقرها حياة الصحراء.

وتبدأ الأحداث تتلاحق بسرعة في البيت الثامن عشر حين يغير الغزاة على الإبل فيتصدى لهم صاحبها الحلاحل "حلحيل" على فرسه المقدام "حشور" العزوم ينهب به الأرض "يرادي به". وصاحب الإبل هذا سلالة شيوخ أكارم وشجعان "تالي شيوخٍ قرومِ" لا تعوزه الشجاعة ولا الرأي "شَذْرٍ حَذِرْ". وينهب الغزاة إبله لكنه يصر على الاستماتة في سبيل استعادتها منهم، فالإنسان لا يتخلى عن حقه بسهولة "كِلٍّ على حَقِّه شحوحٍ

بحومِ".

وهكذا يتمكن الشاعر في هذه الأبيات القليلة أن يهيء المستمع ويشد انتباهه لمتابعة الأحداث التي تقترب من الذروة. يستجمع صاحب الإبل شجاعته "أحضر حياه" فهو فارس لا تجد الوساوس والخوف سبيلاً إلى نفسه "ولا بنفسه وهوم" فيطلق لفرسه العنان "صَنّه" ويتتبع الغزاة ليستخلص الإبل منهم وليدرأ عن نفسه العار حتى لا يكون سبة بين الناس. إلا أن أحد الرماة المهرة المتمرسين في حرب الصحراء "ضاريٍ بالمحاويل" يترجل عن راحلته بسرعة "طبّح" وصوب إلى فرسه طلقة جندلتها فوقعت على الأرض ورفعت برجليها إلى أعلى وصار حذاؤها يلمع في الأفق كالنجوم في قبة السماء. ويضطر صاحب الإبل بعد قتل فرسه إلى التخلي عن طلب الغزاة ويعود حسيرا ذليلا تغوص قدماه في كثبان الرمال الناعمة. وهكذا تتجلى سخرية القدر ويتحول الإنسان العزيز في طرفة عين إلى شخص ضعيف كاسف البال مسلوب الإرادة يسهر الليل وحيداً صامتاً لا يمتلك حتى الشكوى.

البيت السابع والعشرون من القصيدة يلخص المشهد الأول وينقلنا بخفة ورشاقة إلى المشهد الثاني. يرفع الستار في المشهد الثاني عن فلاح نشيط ركز كل جهده وزرع كل أمله في فلاحته وفي أربعمائة صاع من القمح الصافي يترقب غلتها وما سيجنيه منها في موسم الحصاد. فهو يمتح الماء من البئر العميق على أربع محال ويبدأ العمل مبكراً مع غروب رقيب النجم، أي قبل الفجر. ويستخدم في المتح أربع وأربع نوق صلبة قوية "أربع عقايبها أربعٍ كشّ حيل" تنهض الماء في غروب واسعة "وساع الكمومِ". ولما ظهرت سنابل القمح من مخابئها وقرب موعد الحصاد نشأت سحابة ثقيلة مظلمة محملة بالمطر. أمطرت هذه السحابة مطراً دافقاً رافقاً على المفالي، أما أطراف الحاضرة والمزارع "روس النواحي" فأمطرت عليها برداً بحجم رؤوس بهم الغنم. وأتلف البرد الزرع وجرف السيل السنابل وراحت ثمرة كفاح الفلاح هدراً. ويصور سويلم سنابل القمح وقد اختلطت بغثاء السيل الذي يشبه بياضه بالثياب "الهدوم". والويل للفلاح بعد هذه الكارثة من مالك الأرض والدائنين. وينهي سويلم قصيدته بالعودة إلى ذكر الحبيبة العفيفة المصونة التي قال القصيدة من أجلها مقفلا بذلك الإطار الغزلي للقصيدة. لكن الغزل هنا قيمة أدبية لا تختلف عن حب الروايات والأفلام. الغزل ليس إلا إطارا فنيا صاغه الشاعر ليفرغ فيه هذين المشهدين عن صاحب الإبل المنهوبة والفلاح الذي جرف السيل زرعه. ونلاحظ أن سويلم يعرض أمامنا هذين المشهدين بنفس الإحساس والوعي والإدراك ونخرج من قصيدته بالانطباع أن الموروث الشعري في الجزيرة العربية، كما تمثله هذه القصيدة، لا ينظر إلى البداوة والحضارة كنمطين متضادين من أنماط الحياة بقدر ما ينظر إليهما كنمطين متعايشين وكخيارين متاحين للحياة وكحقائق أساسية من حقائق الواقع

المعاش في البيئة الصحراوية. الاختلاف بين الحضارة والبداوة مثل الاختلاف بين فصول السنة، إنه ضروري لدورة الحياة واستمرارها. يقول سويلم:

اخـــوي طاب الكيف له والتـــعـــاليل ... صـدره وسـيع ولا تجـيـه الـهـمـومِ
لى واهنيّـــه له شْـبـــوح ومـــراسـيل ... وانا شْـبـــوحي مـــا تجـيب العلوم
البـــدو شـــالوا نوّهوا بالمراحـــيل ... وكلٍّ رِكَض للـزمِل شِـــــلاّه تـومي
حَـــدٍ يِخِمّ العِلْق يِخْطيـــه ويشـــيل ... وْحَـــــدٍ تِقَلّل مـــــا بِقي له لِزوم
شـــالوا وقـــفّن الظعـــاين زعـــاجـيل ... شَـــقّـــوا وْهَقّـــوا واتّقـــوا بالحـــزوم
وانا بمرقـــاب الشـــقـــا عـــيني تخـيل ... في راس مـــرقـــابٍ طويل الرجـــوم
أخـــايل الاظعـــان واقـــفت مـــقـــابيل ... اســـتـــقـــبلن ظعـــون زاهى الرقـــوم
وايّست من دعّـــاج الاعـــيـــان بالميل ... ولا لـي عـلـى نـابـى الـردايـف سلـوم
واهَجِـــرْ قلبي كـــان هو طاول الطيل ... عـــز الله اني مـــهـــجلٍ كل يوم
اهْجـــال من تاهت عن الذود بالليل ... مـــا بين ســـرح لوارد الجـــو تومي
الولف بلوى به هبـــال وهرافـــيل ... لولا الحـــيـــا راعـــيـــه يرمى الهـدوم
يالايمي جـــعله بحـــســـر وغـــرابيل ... الله يبـــــلا بالـبـــــلا من يلوم
عـــســـاه بالدنيـــا قليل المحـــاصـيل ... وبالآخـره يسـقى حـمـيم وسـمـوم
وجـدي عليـهـا وجـد من له مـواحـيل ... حـــيلٍ وخلفـــاتٍ تدوس الوســـوم
وعـــشـــايرٍ شِـــقْحٍ ثْلاد ومـــخـــاليل ... ومـــعـــهن على شـــقـــران فِلْوٍ قـحـوم
سِبِّـــر لعـــجـــمـــانٍ على كِنّسٍ حـيل ... شـيب المتـــون عـــيـــونهن تقل لومي
كل ابلـجٍ ضـــارٍ يكسب التـنـافـــيل ... ضـــرمـــا يبـــون المال مـــا فـــيـــه لوم
وغـارت عليـه القـوم خـيل ورجـاجـيل ... وطبّح على فِلْوٍ حَـــشُـــورٍ عَـــزوم
واقـــفى يرادي به عن الخـيل حِلْحـيل ... شَـذْرٍ حَـــذِرْ تالي شْـيـــوخٍ قْـــروم
واقـفت على ذوده عـصـاةٍ مـشـاكـيل ... وْكِلٌ على حَـــقّـــه شِـحـــوحٍ بِحـــوم
وصلّه وخلّى العج مـــثل المخـــاييل ... عج الرمك والبل مـــثل الغـــيـــوم
يبي يداري هرجـــة القـــول والقـــيل ... أحـضـر حـيـاه ولا بنفسـه وْهوم
وطبّح له اللي ضـــاريٍ بالمحـــاويل ... وثارت إلى ان حْـــذاه مـــثل النجـــوم
واقـــفى مْـــذِلٌ مع دكـاك الغـرامـيل ... يفـــرك يديه ومـــر كـــبـــده يزوم
عـقب السـعـد والعـز والبن والهـيل ... وكـبش مْـرَبّينه لكل مـحـشـوم
اليـوم يسـهـر كل مـا جَـرْهَد الليل ... ودايم على غـيـضـه صنوتٍ كـضـوم
هذا وجـودي وجـد من له مـواحـيل ... من عـقب مـا هي ذود صـارت قْـسـوم
أو وجـد من صدّر على اربع مـحـاحـيل ... لهـا لْيـا غـاب الرقـيب مـعلوم
صـــدّر على اربعـــمـــايةٍ كلهـا كـيل ... حبٌ حـمـر تسـقي نواحـيـه كـوم
اربع عـقـايبـهـا اربعٍ كِنّسٍ حـيل ... يشـيلن المـا في وســاع الكمـوم
يوم اسـتـتم الزرع شـال النمـا شـيل ... نِشَت بردها كـبـر روس البـهـوم
وهلّت على وصط المفـالي همـاليل ... وصـارت على روس النواحي رجـوم
واللي بقى من حـبّـهـا شـاله السـيل ... غـثـو السـبل بالسـيل مـثل الهـدوم
واصـبح يصـيح ويزعج الويل بالويل ... عن نول مـا نالت يديه مـحـروم

الله يكفـــــينا شـــــرور المخـــــايـيل الا عطا الرحـــمـــه كـــمـــا انه رحـــوم
مـــا قلتـــهـــا باللي تعـــرف التـــهـــاويل ولا هي من اللـي يجـــــمـــــعن العلوم